الآيـــة رقـــم (٨٥)

قال تعالى : ﴿ وزكريّا ويحيى وعيسى وإلياس كلٌّ من الصّالحين ﴾ .

إنّ زكريّا والد يحيى عليهما السّلام وإنّ يحيى وعيسى عليهما السّلام ابنا خالة . وإنّ سورة آل عمران من أكثر السّور الّتى تبيّن هذه العلاقة وصفة الصّلاح المشتركة بين كلّ النّبيّين عليهم جميعًا صلوات الله تعالى وسلامه . قال تعالى[1] : ﴿ إنّ الله اصطفى آدم ونوحًا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين . ذرّيّةً بعضها من بعض . والله سميعٌ عليم . إذ قالت امرأة عمران ربّ إنّى نذرت لك ما فى بطنى محرّرًا فتقبّل منّى إنّك أنت السّميع العليم . فلمّا وضعتها قالت ربّ إنّى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذّكر كالأنثى وإنّى سمّيتها مريم وإنّى أعيذها بك وذرّيّتها من الشّيطان الرّجيم . فتقبّلها ربّها بقبولٍ حسنٍ وأنبتها نباتًا حسنًا وكفّلها زكريّا . كلّما دخل عليها زكريّا المحراب وجد عندها رزقًا قال يا مريم أنّى لك هذا قالت هو من عند الله . إنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب . هنالك دعا زكريّا ربّه قال ربّ هب لى من لدنك ذرّيّةً طيّبةً إنّك سميع الدّعاء . فنادته الملائكة وهو قائمٌ يصلّى فى المحراب أنّ الله يبشّرك بيحيى مصدّقًا بكلمةٍ من الله وسيّدًا وحصورًا ونبيًّا من الصّالحين . قال ربّ أنّى يكون لى غلامٌ وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر . قال كذلكَ الله يفعل ما يشاء . قال ربّ اجعل لى آية . قال آيتك ألاّ تكلّم النّاس ثلاثة ايّامٍ إلاّ رمزًا واذكر ربّك كثيرًا وسبّح بالعشيّ والإبكار . وإذ قالت الملائكة يا مريم إنّ الله اصطفاك وطهّرك واصطفاك على نساء العالمين . يا مريم اقنُتى لربّك واسجدى واركعى مع الرّاكعين . ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيّهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون . إذ قالت

---

(١) سورة آل عمران ٣٣ ــ ٤٦ .

الملائكة يا مريم إنّ الله يبشّرك بكلمةٍ منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهًا فى الدّنيا والآخرة ومن المقرّبين . ويكلّم النّاس فى المهد وكهلاً ومن الصّالحين ﴾ .

لقد وُصِف كلٌّ من يحيى عليه السّلام فى الآية الكريمة التّاسعة والثّلاثين وعيسى عليه السّلام فى الآية الكريمة السّادسة والأربعين بأنّه ﴿ من الصّالحين ﴾ وجاء فى الآية الكريمة الّتى نحن بصددها من سورة الأنعام فى حقّ كلٍّ من زكريّا ويحيى وعيسى وإلياس القول : ﴿ كلٌّ من الصّالحين ﴾ والمعروف أنّ صفة الصّلاح مشتركة بين عباد الله تعالى الصّالحين انتهاءً بالنّبيّين والمرسلين عليهم جميعًا صلوات الله وسلامه . وهذه هي آية سورة النّساء الّتى يفهم معها أنّ صفة الصّلاح أولى صفات عباد الله تعالى المنعم عليهم ابتداءً بالصّالحين وانتهاءً بالمرسلين مرورًا بالنّبيّين باعتبار النّبوّة الطّريق الوحيد المؤدّى إلى الرّسالة . قال تعالى[1] : ﴿ ومن يطع الله والرّسول فأولئك مع الّذين أنعم الله عليهم من النّبيّين والصّدّيقين والشّهداء والصّالحين . وحَسُنَ أولئك رفيقا . ذلك الفضل من الله . وكفى بالله عليما ﴾ لقد جاء ذكر المرسلين على رأس قائمة المنعم عليهم فى القول : ﴿ ومن يطع الله والرّسول ﴾ وإليك ما جرى على لسان يوسف عليه السّلام الّذى اصطفاه الله تعالى بدرجة النّبوّة والّذى يسأل الله تعالى أن يلحقه بالصّالحين . قال تعالى[2] : ﴿ ربّ قد آتيتنى من الملك وعلّمتنى من تأويل الأحاديث فاطِرَ السّماوات والأرض أنت وليّى فى الدّنيا والآخرة توفّنى مسلمًا وألحقنى بالصّالحين ﴾ وهذا سليمان عليه السّلام الّذى علّمه الله تعالى منطق الطّير وآتاه من كلّ شيءٍ يسأل الله تعالى أن يدخله فى عباده جلّ وعلا الصّالحين حينما سمع بإذن الله تعالى قول النّملة للنّمل وفهم قولها . قال تعالى[3] : ﴿ وورث سليمان داود وقال يا أيّها النّاس عُلِّمْنا منطق الطّير وأوتينا من كلّ شيء . إنّ هذا لهو الفضل المبين . وحُشِرَ لسليمان جنوده من

---

(١) سورة النّساء ٦٩ ، ٧٠ .

(٢) سورة يوسف ١٠١ .

(٣) سورة النّمل ١٦ ـ ١٩ .

الجنّ والإنس والطّير فهم يوزَعون . حتّى إذا أتوا على وادى النّمل قالت نملةٌ يا أيّها النّمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنّكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون . فتبسّم ضاحكًا من قولها وقال ربّ أوزعنى[1] أن أشكر نعمتك الّتى أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحًا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصّالحين ﴾ .

وتواصل الآية الكريمة التّالية ذكر الكوكبة الأخيرة فى موكب النّبيّين الكرام الّذين هداهم الله تعالى فإلى .

الآيـــة رقـــم (٨٦)

قال تعالى : ﴿ وإسماعيل والْيَسَعَ ويونس ولوطًا . وكلاًّ فضّلنا على العالمين ﴾ .

المعنى كما هو معروف : وهدينا إسماعيل واليسع ويونس ولوطا . وإسماعيل عليه السّلام هو ابن إبراهيم عليه السّلام . وسبق أن كان الابتداء بإسحاق بن إبراهيم ويعقوب بن إسحاق عليهم السّلام وذلك فى القول : ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلاًّ هدينا ﴾ وإذا كان كلّ النّبيّين بعد إبراهيم عليه السّلام من ذرّيّته عليه السّلام فإنّ كلّ النّبيّين من ذرّيّة ابنه إسحاق عليه السّلام باستثناء خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين محمّد بن عبد الله ﷺ فإنّه من ذرّيّة ابنه إسماعيل بن إبراهيم عليهما السّلام . لقد كان كلّ النّبيّين من ذرّيّة إسحاق عليه السّلام ، وفيهم موسى عليه السّلام كبير أنبياء بنى إسرائيل وعيسى عليه السّلام آخر أنبياء بنى إسرائيل . وكان بنو إسرائيل على علمٍ بأنّ نبيًّا خاتمًا سوف يبعثه الله تعالى وقدنا وقت بعثه وكانوا يظنّون أنّ هذا النّبيّ الخاتم سيكون فى بنى إسرائيل على غرار سائر أنبياء بنى إسرائيل من ذرّيّة إسحاق عليه السّلام . والمعروف أنّ إسحاق عليه السّلام ابن إبراهيم عليه السّلام من زوجه سارّة فى حين أنّ إسماعيل ابنه عليهما السّلام من سُرِّيّته هاجَر . لقد شاء الله تعالى أن يحوّل الرّسالة من بنى إسرائيل ذرّيّة إسحاق

---

(١) أوزعنى : ألهمنى .

عليه السّلام ، فإنّ ابنه يعقوب ـ إسرائيل ـ عليه السّلام كان له من الأولاد اثنا عشر ولدًا ذكرًا ، وفيهم يوسف عليه السّلام ، وقد أصبح كلّ واحدٍ منهم أبًا لقبيلة . وهؤلاء الاثنا عشر ولدًا هم الأسباط . وإلى مَنْ حوّل الله تعالى الرّسالة الخاتمة ؟ إلى العرب ذرّيّة إسماعيل عليه السّلام . ولماذا تحوّلت الرّسالة من بنى إسرائيل ؟ لأنّهم خانوا الأمانة وأصابتهم الشّيخوخة فلم يعودوا أهلاً لحمل رسالة وتحمّل مسئوليّة . وما معنى اصطفاء الله تعالى العرب بالنّبيّ الخاتم المبعوث فيهم من أنفسهم ؟ معناه أنّهم مادّة الإسلام الأولى وأنّ عليهم أن يؤدّوا متطلّبات الأمانة الّتى حمّلهم الله تعالى إيّاها واصطفاهم بها . وقد قال تعالى[1] : ﴿ وإن تتولّوا يستبدل قومًا غيركم ثمّ لا يكونوا أمثالكم ﴾ .

وكما هدى الله تعالى واصطفى بالنّبوّة إسماعيل عليه السّلام هدى جلّ وعلا واصطفى ﴿ اليَسَع ﴾ عليه السّلام الّذى جاء ذكره فى القرآن الكريم فى موضعين اثنين فقط ، فى هذه الآية الكريمة وفى الآية الكريمة الثّامنة والأربعين من سورة ص . قال تعالى : ﴿ واذكر إسماعيل واليَسَعَ وذا الكفل وكلٌّ من الأخيار ﴾ ويلاحظ جمع الآيتين الكريمتين فى الذّكر بين إسماعيل واليسع عليهما السّلام .

وهدى الله تعالى يونس عليه السّلام : ﴿ وإسماعيلَ واليَسَعَ ويونس ﴾ ويونس عليه السّلام هو يونس بن مَتّى[2] وممّا جاء عن يونس عليه السّلام قوله تعالى فى سورة الصّافات[3] : ﴿ وإنّ يونس لمن المرسلين. إذ أَبَقَ إلى الفُلْك المشحون . فساهم فكان من المدحضين . فالتقمه الحوت وهو مليم . فلولا أنّه كان من المسبّحين . للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون . فنبذناه بالعراء وهو سقيم . وأنبتنا عليه شجرةً من يقطين . وأرسلناه إلى مائة ألفٍ أو يزيدون . فآمنوا فمتّعناهم إلى حين ﴾ وقد انفرد قوم يونس عليه السّلام بين سائر المكذّبين بقبول الله تعالى توبتهم لمّا رأوا

---

(١) سورة محمّد ٣٨ .

(٢) تفسير الطّبريّ ١٧٣/٧ وقريته عليه السّلام نِينَوَى بالمَوْصل . معجم البلدان « نينوى » .

(٣) الآيات ١٣٩ ـ ١٤٨ .

العذاب فقد مضت سنّة الله تعالى بإهلاك المكذّبين الّذين يصرّون على التّكذيب حتّى حلول العذاب . جاء في سورة يونس ، الّتي تحمل اسم الرّسول الكريم ، قوله تعالى[1] : ﴿ فلولا كانت قريةٌ آمنت فنفعها إيمانها إلاّ قوم يونس لمّا آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدّنيا ومتّعناهم إلى حين ﴾.

وهدى الله تعالى لوطًا عليه السّلام : ﴿ وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا ﴾ ولوطٌ عليه السّلام هو ابن أخي إبراهيم عليه السّلام هاران بن آزر[2] وممّا جاء عن لوطٍ عليه السّلام قوله تعالى في سورة النّمل[3] : ﴿ ولوطًا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون . أئنّكم لتأتون الرّجال شهوةً من دون النّساء . بل أنتم قومٌ تجهلون . فما كان جواب قومه إلاّ أن قالوا أخرجوا آل لوطٍ من قريتكم إنّهم أناسٌ يتطهّرون . فأنجيناه وأهله إلاّ امرأته قدّرناها من الغابرين . وأمطرنا عليهم مطرًا فساء مطر المنذرين ﴾ وجاء في سورة هود قوله تعالى[4] : ﴿ ولمّا جاءت رسلُنا لوطًا سيء بهم وضاق بهم ذرعًا وقال هذا يومٌ عصيب . وجاءه قومه يُهْرَعون إليه ومن قَبْلُ كانوا يعملون السّيّئات . قال يا قوم هؤلاء بناتي هُنّ أطهر لكم فاتّقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجلٌ رشيد . قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك مِنْ حقٍّ وإنّك لتعلم ما نريد . قال لو أنّ لي بكم قوّةً أو آوي إلى ركن شديد . قالوا يا لوط إنّا رسل ربّك لن يصلوا إليك فأسْرِ بأهلك بِقِطْعٍ من اللّيل ولا يلتفت منكم أحدٌ إلاّ امرأتَكَ إنّه مصيبها ما أصابهم . إنّ موعدهم الصّبح . أليس الصّبح بقريب. فلمّا جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارةً من سجّيلٍ منضود . مسوّمةً عند ربّك وما هي من الظّالمين ببعيد ﴾ .

وتختم الآية الكريمة بالقول : ﴿ وكلاً فضّلنا على العالمين ﴾ والمعنى أنّ الله سبحانه وتعالى فضّل كلاًّ من هؤلاء النّبيّين على العالمين مطلقًا بالنّبوّة . وليس من

---

(١) سورة يونس ٩٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ١٥٥/٢ وجاء في تفسير ابن عطيّة ٢٦٩/٥ : « وقيل : ابن أخته » .

(٣) الآيات ٥٤ ـ ٥٨ .

(٤) سورة هود ٧٧ ـ ٨٣ .

الضّروريّ أن نفهم العالمين بأنّهم عالمو زمانهم ، لأنّ لوطًا عليه السّلام مثلاً معاصرٌ لإبراهيم عليه السّلام . وإبراهيم عليه السّلام أبو الأنبياء وأحد أولى العزم من الرّسل واتّخذه الله تعالى خليلاً . وبعد أن نصّ السّياق على أسماء فريقٍ من هؤلاء النّبيّين المنعم عليهم المهديّين اشار إلى غير المذكورين فإلى .

الآيـــة رقـــم (٨٧)

قال تعالى : ﴿ ومن آبائهم وذرّيّاتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراطٍ مستقيم ﴾ .

أشار ابن كثير فى تفسيره إلى النّبيّين الّذين جاءت أسماؤهم فى القرآن الكريم وفيهم آدم عليه السّلام وذو الكفل . وعدد هؤلاء خمسةٌ وعشرون . يقول رحمه الله تعالى رحمةً واسعة[1] : « وهذه تسمية الأنبياء الّذين نصّ الله على أسمائهم فى القرآن وهم آدم وإدريس ونوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وأيّوب وشعيب وموسى وهارون ويونس وداود وسليمان وإلياس واليسع وزكريّا ويحيى وعيسى وكذا ذو الكفل عند كثيرٍ من المفسّرين وسيّدهم محمّدٌ ﷺ » وقد نصّت الآيات الكريمات الّتى نحن بصددها على ثمانية عشر من هؤلاء النّبيّين المصطفين الأخيار وهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب ونوح وداود وسليمان وأيّوب ويوسف وموسى وهارون وزكريّا ويحيى وعيسى وإلياس وإسماعيل واليَسَعَ ويونس ولوط . وبذلك تجمع الآيات الكريمات فى حيّزٍ واحد مجموعةً كبيرةً من النّبيّين بأكثر من ايّ موضعٍ آخر فى القرآن الكريم . ومن المعروف أنّ ربّ العزّة قصّ فى القرآن الكريم بعض النّبيّين و لم يقصص بعضهم الآخر . جاء خطابًا للمصطفى ﷺ فى سورة النّساء[2] القول : ﴿ ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٥٨٥ . (٢) الآية ١٦٤ .

ورسلاً لم نقصصهم عليك . وكلّم الله موسى تكليما ﴾ كما جاء فى سورة غافر[1] القول : ﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك ﴾ .

وحينما تشير آية سورة الأنعام الكريمة إلى آباء هؤلاء المنعم عليهم وهم بإذن الله تعالى سبب وجودهم فى هذه الحياة ، وإلى ذرّياتهم وفلذات أكبادهم ، وإلى إخوانهم المعاصرين لهم فإنّها تشير فى الحقيقة إلى كلّ النّبيّين المنعم عليهم الّذين هداهم الله تعالى ، وفيهم الّذين لم تأت أسماؤهم فى القرآن الكريم . إنّ هؤلاء جميعًا قد هداهم الله تعالى سبله ، واجتباهم واصطفاهم ، وهداهم إلى الصّراط المستقيم والطّريق القويم . ولّما كان كلّ أولئك قد أرسلهم الله تعالى بدين الإسلام لله ربّ العالمين والتّخلّص من الشّرك فقد أشارت الآية الكريمة التّالية إلى هذه المعاني فإلى .

الآيــــة رقـــم (٨٨)

قال تعالى : ﴿ ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده . ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ﴾ .

إنّ ذلك الدّين القيّم دين الإسلام الّذى بعث الله تعالى به كلّ رسله ابتداءً بنوحٍ عليه السّلام ، وانتهاءً بمحمّد بن عبد الله ﷺ ، مرورًا بالنّبيّين الكرام الّذين ذكرتهم الآيات الكريمات والّذين لم تذكرهم ، هو هدى الله تعالى الّذى يهدى به من يشاء من عباده وقد قال تعالى[2] : ﴿ والّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا . وإنّ الله لمع المحسنين ﴾ .

ولّما كان ثمّة أمران متناقضان ، إسلام وشرك ، إيمانٌ وكفر ، ولّما كان ثواب الّذين اهتدوا أن يزيدهم الله تعالى هدى ، وعقاب الّذين أشركوا أن يزيدهم الله تعالى إلى عماهم عمى وأن يحبط أعمالهم فقد تحدّثت الآية الكريمة فى شقّها الآخر

---

(١) الآية ٧٨ . (٢) سورة العنكبوت ٦٩ .

عن هذا الشّقّ الآخر من القضيّة . وكي تنبّه الآية الكريمة إلى خطورة الشّرك باعتباره الذّنب الّذى لا يغفره الله تعالى مطلقًا بيّنت أنّ الشّرك لو ارتكبه ـ على سبيل الافتراض ـ واحدٌ من أولئك المنعم عليهم ، وهذا مستحيل لأنّ الشّرط لا يعنى بالضّرورة التّحقّق وحدوث الأمر فى دنيا الواقع ، فإنّ الحكم الواحد نافذ والسّنّة ماضية : ﴿ ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ﴾ بمعنى لبطل فذهب عنهم أجر أعمالهم الّتى كانوا يعملون[1] .

ويكون تثبيت فؤاده ﷺ مباشرًا فى الآية الكريمة التّالية فإلى .

الآيـــة رقـــم (٨٩)

قال تعالى : ﴿ أولئك الّذين آتيناهم الكتاب والحكم والنّبوّة . فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكّلنا بها قومًا ليسوا بها بكافرين ﴾ .

إنّ أولئك المنعم عليهم المصطفين الأخيار الّذين يشار إلى رفيع منزلتهم باسم الإشارة : ﴿ أولئك ﴾ والّذين ذكرتهم الآيات الكريمات السّابقات هم الّذين آتاهم الله تعالى فضلاً منه جلّ وعلا ومنّة الكتب السّماويّة السّابقة الّتى ذكر القرآن الكريم منها صحف إبراهيم وموسى وزبور داود وإنجيل عيسى عليهم جميعًا صلوات الله تعالى وسلامه ، والّذين آتاهم الله تعالى الحكمة وفهم المعنى الصّحيح لها ، والّذين آتاهم الله تعالى النّبوّة . والمعروف أنّ درجة الرّسالة ، ودرجة النّبوّة وهي الطّريق الوحيد المؤدّى إلى الرّسالة ، هما محض فضلٍ من الله تعالى . وإنّ ما يقال عن هؤلاء النّبيّين الكرام يقال عن المصطفى ﷺ وقد جاء خطابًا من الله تعالى له عليه الصّلاة والسّلام فى سورة النّساء[2] قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلّمك ما لم تكن تعلم . وكان فضل الله عليك عظيما ﴾ .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٧/١٧٤ .

(٢) الآية ١١٣ .

وإذا كان صدر الآية الكريمة تسليةً غير مباشرةٍ له ﷺ : ﴿ أولئك الّذين آتيناهم الكتاب والحكم والنّبوّة ﴾ فإنّ عجز الآية الكريمة تسليةٌ مباشرةٌ له ﷺ : ﴿ فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكّلنا بها قومًا ليسوا بها بكافرين ﴾ إنّ الجزئيّة الكريمة تقول : إن يكفر بنبوّتك ايّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم وبرسالتك وبالآيات البيّنات الّتى أوحيتها إليك ويجحد بها قومك من كفّار مكّة المشركين فقد وكّلنا بها قومًا آخرين ليسوا بها بكافرين وأرصدنا وسخّرنا لها المهاجرين والأنصار الّذين ليسوا بها بجاحدين . وما أكثر الثّناء فى القرآن الكريم على كلٍّ من المهاجرين والأنصار الّذين بذلوا أرواحهم رخيصةً فى سبيل الله تعالى .

ولمّا كان هدى النّبيّين أجمعين واحدًا فقد أُمِر عليه الصّلاة والسّلام بالاقتداء بأولئك المهتدين ، وبأن يقول للكافرين بأنّ القرآن الكريم ذكرى للعالمين وذلك فى الاية الكريمة التّالية فإلى .

الآيـــة رقـــم (٩٠)

قال تعالى : ﴿ أولئك الّذين هدى الله فبهداهم اقتده . قل لا أسالكم عليه أجرًا إن هو إلاّ ذكرى للعالمين ﴾ .

قرأ ابن كثير وأهل مكّة ونافع وأبو عمرو وأهل المدينة وعاصم : ﴿ اقتده ﴾ بهاء السّكت ثابتة فى الوصل والوقف . وقرأ حمزة والكِسائيّ : ﴿ اقتد ﴾ قال : بحذف الهاء فى الوصل وإثباتها فى الوقف . وهذا هو القياس . وهي تشبه ألف الوصل فى أنّها تقطع فى الابتداء وتوصل غير مبتدأٍ بها . فكذلك هذه تثبت فى الوقف وتحذف فى الوصل[1] .

إنّ الآية الكريمة فى صدرها : ﴿ أولئك الّذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ تؤكّد أنّ أولئك المنعم عليهم المصطفين الأخيار هم الّذين هداهم الله تعالى إلى دين الإسلام

---

(١) تفسير ابن عطيّة ٥/٢٧٨ .

لله ربّ العالمين ، وتأمر المصطفى ﷺ بأن يقتدي عليه الصّلاة والسّلام بهداهم وأن يتأسّى بهم فى الصّبر والجهاد ، وأن يجعلهم أسوته الحسنة . وقد جاء فى سورة النّحل خطابًا له ﷺ القول(١) : ﴿ ثمّ أوحينا إليك أن اتّبع ملّة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين ﴾ وجاء فى سورة الأحقاف خطابًا له ﷺ القول(٢) : ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرّسل ﴾ والمعروف أنّ آيات هذا القسم قد ذكرت بصريح اللّفظ أسماء الأربعة الباقين من أولى العزم من الرّسل ، وهؤلاء الأربعة هم نوحٌ وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم صلوات الله وسلامه . أمّا خامس أولى العزم من الرّسل بل زعيمهم فإنّه محمّد بن عبد الله ﷺ .

ومع أنّ الهداية لدين الإسلام أعظم نعمةٍ ينالها المسلم لله ربّ العالمين ، ومع أنّ المصطفى ﷺ هو الذى يقوم بإذن ربّه جلّ وعلا بدور الهادى إلى الصّراط المستقيم وقد قال تعالى(٣) : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورًا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنّك لتهدى إلى صراطٍ مستقيم . صراط الله الذى له ما فى السّماوات وما فى الأرض . ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ فإنّ الآية الكريمة فى شقّها الآخر تأمر المصطفى ﷺ أن يقول لكفّار مكّة إنّى أقدّم لكم هذه الهداية دون مقابل : ﴿ قل لا أسألكم عليه أجرًا إن هو إلاّ ذكرى للعالمين ﴾ والمعنى قل يا محمّد لأولئك المشركين الكافرين برسالتك الجاحدين لدينك لا أسألكم أجرًا على الهداية الّتى أمرني الله تعالى بتقديمها لكم مع أنّ هذه الهداية أعظم ما يمكن أن يقدّم ، لأنّها هي السّبب بإذن الله تعالى فى دخول الجنّة والابتعاد عن النّار ، ومع أنّ من حقّ الأجير أن يأخذ أجرته قبل أن يجفّ عرقه، ومن حقّ العامل أن يأخذ ثواب عمله .

وهذا القرآن الكريم الّذى يجحد به الكافرون ما هو على الحقيقة ؟ ليس هذا القرآن الكريم سوى ذكرى للعالمين وموعظةٍ للثّقلين الإنس والجنّ . والمعروف أنّ

---

(١) سورة النّحل ١٢٣ . (٢) سورة الأحقاف ٣٥ . (٣) سورة الشّورى ٥٢ ، ٥٣ .

رسالة المصطفى ﷺ عالميّةٌ منذ فجرها وموجّهةٌ للنّاس كافة . واللّطيف فى الأمر أنّ النّصّ على كون رسالة المصطفى ﷺ للنّاس كافّةً جاء فى سورٍ مكّيّةٍ نزلت قبل هجرة المصطفى ﷺ من مكّة المكرّمة إلى المدينة المنوّرة ، ممّا يؤكّد عالميّة هذه الرّسالة منذ فجرها خلافًا لما يقول المغرضون . جاء فى سورة الفرقان(١) قوله تعالى: ﴿ تبارك الّذى نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾ وجاء فى سورة الأعراف(٢) قوله تعالى : ﴿ قل يا أيّها النّاس إنّى رسول الله إليكم جميعًا الّذى له ملك السّماوات والأرض لا إله إلاّ هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النّبيّ الأمّيّ الّذى يؤمن بالله وكلماته واتّبعوه لعلّكم تهتدون ﴾ وجاء فى سورة سبا(٣) قوله تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلاّ كافّةً للنّاس بشيرًا ونذيرًا ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون ﴾ وقال تعالى : ﴿ أولئك الّذين هدى الله فبهداهم اقتده . قل لا أسألكم عليه أجرًا إن هو إلاّ ذكرى للعالمين ﴾ .

---

(١) الآية ١ . (٢) الآية ١٥٨ . (٣) الآية ٢٨ .

[٩]

« الله تعالى منزل كلّ الكتب السّماويّة ، وإنذارٌ للمفترين على الله الكذب والمنكرين للبعث »

الآيـــات (٩١ ـ ٩٤)

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا مَآ أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ
قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَٰبَ الَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ
تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا
أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾
وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ
أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ
وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى
ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ
مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ الظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ الْمَوْتِ
وَالْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا أَنفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ
تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ
وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ
كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ
وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا ۚ
لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

كفر مشركو مكّة برسالة المصطفى ﷺ وجحدوا بآيات القرآن الكريم لأنّهم ما قدروا الله تعالى حقّ قدره ولا عظّموه حقّ عظمته . وللسّبب ذاته هم أنكروا أن يكون ربّ العزّة قد أنزل أيّاً من الكتب السّماويّة رغم أنّهم ينعتون بنى إسرائيل سكّان منطقة المدينة المنوّرة آنذاك بأنّهم أهل كتاب . ويجمع السّياق فى قَرَنٍ بين كفّار مكّة الّذين زعموا أنّ الله تعالى لم ينزل أيّاً من الكتب السّماويّة وبين كفّار بنى إسرائيل الّذين خانوا أمانة العلم ونقضوا الميثاق الّذى أخذه الله تعالى عليهم بأن يبيّنوا معاني الكتاب وألاّ يكتموا منه شيئًا . إنّ السّياق يسأل كفّار مكّة فى إنكار : ﴿ مَنْ أنزل الكتاب الّذى جاء به موسى نورًا وهدىً للنّاس ﴾ ويخاطب بنى إسرائيل فى إنكارٍ ويبكّتهم بسبب كتابتهم التّوراة فى وسائل الكتابة آنذاك فى هيئة أجزاءٍ وتفاريق يبدون بعضها لمن شاءوا ويخفون كثيرًا منها . وممّا أخفوه نعت محمّد بن عبد الله ﷺ . والمعروف أنّ القرآن الكريم بيّن الكثير النّافع الّذى أخفاه أهل الكتاب من التّوراة والإنجيل ، كما أنّ القرآن الكريم الّذى بيّنت سنّة المصطفى ﷺ معانيه ، قد علّم الله تعالى به قريشًا وسائر النّاس ما لم يعلموا هم وآباؤهم . وتجيب الآية الكريمة على السّؤال الّذى لا جواب سواه بأنّ الله تعالى هو منزل الكتب السّماويّة فإن آمن القوم فقد اهتدوا وإلاّ فإنّهم فى خوضهم لاعبون . ويصف السّياق القرآن الكريم بأنّه كتابٌ مبارك أنزله ربّ العالمين وهو مصدّق للكتب السّابقة ، وبه ينذر المصطفى ﷺ ابتداءً أهل مكّة المكرّمة وما حولها ومن حولها . إنّ الّذين يؤمنون بالقرآن الكريم يؤمنون بالآخرة ويعملون الصّالحات من أجل ذلك اليوم العظيم ابتداءً بإقام الصّلاة . ويذكر السّياق ثلاث فئاتٍ لا أحد أظلم منها متدرّجًا من أسوئها الّذين تجرّءوا على مقام الذّات العليّة بأن افتروا على تعالى الكذب ، إلى الّذين تجرّءوا على مقام النّبوّة فزعموا أنّهم موحىً إليهم بالنّبوّة

وبالكتاب ، إلى الّذين زعموا أنّهم سينزلون مثلما أنزل الله تعالى من كتاب . ويشير السّياق إلى فظاعة ما يصادف الظّالمون ، ابتداءً بسكرات الموت وكرباته ، مرورًا بضرب الملائكة ساعة النّزع وجوه الظّالمين وأدبارهم قائلين لهم على سبيل التّبكيت: أنقذوا أنفسكم من هذه المحن وأخرجوها منها بعد أن أدخلتموها فيها ، وانتهاءً بعذاب الهوان يوم القيامة بسبب قولهم على الله تعالى غير الحقّ واستكبارهم عن آيات الله تعالى . وكما خلق الله تعالى النّاس حفاةً عراةً غُرْلاً وفيهم الظّالمون رجع الظّالمون إلى الله تعالى كما خلقهم أوّل مرّة وتركوا وراءهم فى الدّنيا ما رزقهم الله تعالى فيها من مالٍ وولدٍ وجاه ، فلا فداء يُقْبل ، بل لا مال يوجد . وتقطّع ما بينهم وبين الآلهة المزعومة من علائق ، وتخلّوا عنهم وضلّوا منهم ، فلا شفاعة يؤذن بها لأولئك المعبودين الرّاضين عن عبادة المشركين لهم وهم الّذين توقد بهم نار جهنّم وبالأصنام ، وبالأوثان ، وبسائر العابدين لها والمعبودين الّذين دعوا إلى عبادتهم ورضوا بها .

الآيــة رقــم (٩١)

قال تعالى : ﴿ وما قدروا الله حقّ قَدْره إذ قالوا ما أنزل الله على بشرٍ من شيء . قل مَنْ أنزل الكتاب الّذى جاء به موسى نورًا وهدًى للنّاس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرًا وعلّمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثمّ ذرهم فى خوضهم يلعبون ﴾

بيّنت الآية الكريمة قبل الأخيرة فى القسم السّابق أنّ كفّار مكّة كفروا برسالة محمّد بن عبد الله ﷺ فى الوقت الّذى وكلّ الله تعالى بها قومًا ليسوا بها بكافرين. قال تعالى : ﴿ فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكّلنا بها قومًا ليسوا بها بكافرين ﴾ ومعنى كفر المكّيّين بالرّسالة تكذيبهم للقرآن الكريم . وإنّ الآية الكريمة الّتى نحن

بصددها تدور حول هذا المحور . إنّ الآية الكريمة تواصل الحديث عن كفّار مكة وذلك بالقول : ﴿ وما قدروا الله حقّ قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشرٍ من شيء ﴾ .

إنّ كفّار مكّة ومن شاكلهم يقولون إنّ الله سبحانه وتعالى ما أنزل على بشرٍ من شيء من الكتب السّماويّة ، لا على محمّد ولا على غير محمّد . ومن البيّن أنّ هؤلاء المشركين يتجاوزون القرآن الكريم إلى سائر الكتب السّماويّة . وكأنّهم بذلك يضعون قاعدةً عامّة أو يعلنون مبدأً واحدًا هو أنّ الله سبحانه وتعالى لم يُنزِل أيّاً من الكتب السّماويّة . وما معنى القول على لسان كفّار مكّة : ﴿ ما أنزل الله على بشرٍ من شيء ﴾ ؟ معناه الاعتقاد فيما نفته هذه الآية الكريمة من سورة المؤمنون[1] : ﴿ أفحسبتم أنّما خلقناكم عبثًا وأنّكم إلينا لا تُرْجَعون ﴾ ولماذا يعتقد كفّار مكّة أنّه ليس ثمّة سوى الحياة الدّنيا وأنّهم لا يبعثون بعد الموت ؟ الجواب في الآية الكريمة الّتي نحن بصددها : ﴿ وما قدروا الله حقّ قدره ﴾ والمعنى أنّ كفّار مكّة ومن شاكلهم ما قدروا الله تعالى حقّ قدره ، ولا عرفوه حقّ معرفته ، ولا أجلّوه حقّ إجلاله ، ولا عظّموه حقّ عظمته . والدّليل على ذلك أنّهم ينكرون أن يكون القرآن الكريم موحًى به من ربّ العالمين ، بل إنّهم لينكرون أن يكون ربّ العزّة قد أنزل أيّاً من الكتب السّماويّة السّابقة على القرآن الكريم . وما معنى عدم إنزال الله تعالى شيئًا من الكتب السّماويّة حسب زعم كفّار مكّة ؟ معناه أنّه ليس ثمّة بعثٌ ولا حسابٌ ولا ثوابٌ ولا عقاب ، وكأنّ الله سبحانه وتعالى إنّما خلقنا عبثًا ﴿ كَبُرَتْ كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذبا ﴾ وأنّا لا نرجع إليه جلّ وعلا بعد أن نلقاه تعالى .

والعجيب في أمر كفّار مكّة أنّ فرط عداوتهم لدين الإسلام ولرسول الأنام حملهم ليس على تكذيب القرآن الكريم وحده إنّما على تكذيب كلّ الكتب السّماويّة والإنكار أن يكون الله تعالى هو الّذي أنزل أيّ واحدٍ منها . والعجيب في

---

(١) الآية ١١٥ .

أمر كفّار مكّة كذلك أنّهم نسوا أو تناسوا علاقتهم الوثيقة ببنى إسرائيل الّذين يقطنون منطقة المدينة المنّورة آنذاك بصفةٍ خاصّةٍ لأنّهم أهل كتاب حسب قول كفّار مكّة . بل إنّ هؤلاء الكفّار يسألون أولئك اليهود مستقبلاً ، دليلاً على العلاقة الوثيقة بين الفريقين ، قائلين : أديننا نحن المشركين خيرٌ أم دين محمّد الّذى يدعو فيه إلى التّوحيد . وكان جواب أهل الكتاب أعجب من سؤال المشركين فقد قالوا للمشركين : بل دينكم خيرٌ من دينه وأنتم أهدى منه وممّن اتّبعه !(١) وقد أنزل الله تعالى فى هذا الشأن قوله عزّ من قائل فى سورة النّساء(٢) : ﴿ ألم تر إلى الّذين أوتوا نصيبًا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطّاغوت ويقولون للّذين كفروا هؤلاء أهدى من الّذين آمنوا سبيلاً . أولئك الّذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرًا ﴾ وإنّ الآية الكريمة تريد تنبيههم إلى وصفهم بنى إسرائيل بأنّهم أهل كتابٍ وتأنيبهم على فرط عداوتهم لدين الإسلام إلى الحدّ الّذى أنكروا مع القرآن الكريم كلّ الكتب السّماويّة السّابقة ، وتورّطوا فى التناقض بين القول سابقًا بأنّ بنى إسرائيل هم أهل التّوراة وبين القول لاحقًا إنّ الله تعالى لم ينزل أيّ كتابٍ بما فى ذلك التّوراة . وحول هذا المعنى جاء القول : ﴿ قل من أنزل الكتاب الّذى جاء به موسى نورًا وهدًى للنّاس ﴾ والمعنى قل يا محمّد لأولئك المشركين المتناقضين الّذين لا يستقرّون على رأي ولا يثبتون على قول : من أنزل التّوراة الّتى جاءبها موسى عليه السّلام نورًا يستضىء به بنو إسرائيل وهدًى لهم من الضّلالة . ويلاحظ جمع الآية الكريمة بين النّور والهدى . وبذلك تؤكّد معنى النّور وتبيّن أنّ النّور قد آتى أكله وأدّى الثّمرة المرجوّة منه وهي الهداية إلى الطّريقة الّتى هي أقوم .

ومن البيّن أنّ الآية الكريمة تشير إلى مثل قوله تعالى بشأن التّوراة فى سورة المائدة(٣) : ﴿ إنّا أنزلنا التّوراة فيها هدًى ونورٌ يحكم بها النّبيّون الّذين أسلموا للّذين

---

(١) انظر مثلاً تفسير الطّبريّ ٥/٨٥ وأسباب النّزول للنّيسابوري ١٨٨ .

(٢) الآية ٥١ ، ٥٢ (٣) الآية ٤٤ .

هادوا والرّبّانيّون والأحبار بما استحفظوا مِنْ كتاب الله وكانوا عليه شهداء . فلا تخشوا النّاس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمنًا قليلاً . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾

ولمّا كان بنو إسرائيل قد حرّفوا التّوراة بنصّ القرآن الكريم فإنّ الآية الكريمة تتحوّل إلى بنى إسرائيل الّذين خانوا الأمانة وحرّفوا التوراة ، وتذكر مظهرًا من مظاهر التّحريف لذلك الكتاب السّماويّ وذلك فى القول : ﴿ قل من أنزل الكتاب الّذى جاء به موسى نورًا وهدًى للنّاس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرًا ﴾ ونستطيع أن نفهم الجزئيّة الكريمة فى ضوء قوله تعالى فى سورة المائدة[١] : ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم كثيرًا ممّا كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير . قد جاءكم من الله نورٌ وكتابٌ مبين . يهدى به الله من اتبّع رضوانه سبل السّلام ويخرجهم من الظّلمات إلى النّور بإذنه ويهديهم إلى صراطٍ مستقيم ﴾ والقرطاس : ما يُكْتَب فيه[٢] والمراد منه المكتوب فى القراطيس[٣] . إنّ أهل الكتاب عمومًا ، بنى إسرائيل خصوصًا ، يجعلون الكتاب السّماوىّ الّذى أوحاه الله تعالى إلى رسولهم مكتوبًا أجزاءً وتفاريق فى وسائل الكتابة المعروفة آنذاك . وهم يبدون لمن شاءوا بعضًا من تلك القراطيس ويخفون كثيرًا منها . ومن هنا خان أهل الكتاب أمانة العلم ونقضوا الميثاق الّذى أخذه الله تعالى عليهم بأن يبيّنوا للناس معنى الكتاب السّماويّ الّذى أوحاه الله تعالى إلى رسوله إليهم . وإلى خيانة القوم للعلم ونقض الميثاق أشار قوله تعالى من سورة آل عمران[٤] : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الّذين أوتوا الكتاب لتبيّننّه للنّاس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنًا قليلاً فبئس ما يشترون ﴾ ومن هنا كان جزءٌ كبيرٌ من كلٍّ من التّوراة والإنجيل لا يعلمه الخاصّة من أهل الكتاب فضلاً عن العامّة لأنّ علماء السّوْء كانوا يخفون الكثير

---

(١) الآية ١٥ ، ١٦ .
(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « قرطس » ٤٠٠ .
(٣) تفسير الطّبريّ ١٧٨/٧ .
(٤) الآية ١٨٧ .

من آي الكتابين السّماويّين . وهذا الإخفاء من مظاهر تحريف هذين الكتابين السّماويّين ، ذلك التّحريف الّذى له العديد من الصّور . ولمّا كان القرآن الكريم مهيمنًا على الكتب السّابقة ، أمينًا عليها ، حافظًا لها ، شاهدًا بصحّتها فيما وافقته وقد قال عزّ من قائل فى سورة المائدة[1] : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحقّ مصدّقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه ﴾ فقد بيّن القرآن الكريم كثيرًا ممّا كان يخفى أهل الكتاب من الكتابين الكريمين ، وفى الوقت ذاته هو يترك كثيرًا دون تبيين ، ويسكت عن كثيرٍ ممّا غيروه ولا فائدة فى بيانه[2]. إنّ هذه المعاني قد أشار إليها فى الآية الكريمة الّتى نحن بصددها قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرًا ﴾ ومن البيّن أننّا بصدد أسلوب الالتفات الّذى يتّم فيه التّحوّل إلى مخاطبة بنى إسرائيل وكأنهمّ هم الّذين يوجّه إليهم الكلام مع أنّهم غائبون ، وإنّما كان هذا الالتفات اتكاءً على قوّة العلاقة بين كفّار مكّة وبنى إسرائيل ، واعتمادًا على التّوطئة فى القول : ﴿ قل من أنزل الكتاب الّذى جاء به موسى ﴾ ومن البيّن كذلك أنّ جوّ عدم الرّضا عن كلّ من كفّار مكّة وبنى إسرائيل الكاتمين للعلم هو المسيطر على الحديث .

ولمّا كان الحديث منطلقًا من كفّار مكّة فإنّه شملهم فى آخره كما شمل سواهم وذلك فى القول : ﴿ وعلّمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ﴾ ويستمرّ الحديث مستعملاً أسلوب الخطاب ، علمًا بأنّه تحوّل من بنى إسرائيل إلى آخرين . وهؤلاء الآخرون هم كفّار مكّة الّذين اتّجه إليهم الحديث فى صدر الآية الكريمة ويصحّ أن يشمل وراء ذلك كلّ الّذين تتحقق فيهم صفة العلم الّتى اكتسبوها بالقرآن الكريم بعد صفة عدم العلم الّتى اتّصفوا بها واتصّف بها آباؤهم من قبل . وأعنى ها هنا المسلمين فى المقام الأوّل ، فإنّهم بفضل الله تعالى تحوّلوا بالإسلام من صفة الأمّيّة إلى صفة العلم ، بل إلى صفة الّذين أوتوا العلم اللّدنيّ .

---

(١) الآية ٤٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٣٤ .

وردًّا على السّؤال : ﴿ قل من أنزل الكتاب الّذى جاء به موسى نورًا وهدًى للنّاس ﴾ يجيء الجواب على غرار السّؤال مصدّرًا بجملة ﴿ قل ﴾ خطابًا للمصطفى ﷺ : ﴿ قل الله ﴾ والمعنى : قل يا محمّد إنّ الّذى أنزل التّوراة على موسى عليه السّلام هو الله تعالى الّذى أنزل القرآن الكريم على محمّد بن عبد الله ﷺ . وإنّ كفّار مكّة إن لم يكن هذا جوابهم فلا جواب سواه ، وإنّهم إن لم يكن هذا جوابهم فذلك معناه أنّ القوم لاهون عابثون لاعبون ، وإنّهم إن لم يؤمنوا بعد ذلك بما أعلنته على رءوس الأشهاد من جوابٍ بأنّ الله تعالى هو منزل التّوراة وهو منزل القرآن الكريم قياسًا على إنزال التّوراة ، وقد أشار حرف العطف ﴿ ثمّ ﴾ إلى هذه الفترة الزّمنيّة ، فإنّ عليك فى هذه الحال أن تترك القوم فى خوضهم يلعبون وفى أودية هراء القول يضربون : ﴿ ثمّ ذرهم فى خوضهم يلعبون ﴾ ولا ننسى أنّ الإذن بالقتال إنّما كان بعد الهجرة إلى المدينة المنّورة وفى السّنة الثّانية .

وإنّ ما فُهِم من الآية الكريمة السّابقة بأنّ منزل التّوراة على موسى عليه السّلام هو الله تعالى منزل القرآن الكريم على المصطفى ﷺ أفصحت به الآية الكريمة التالية فإلى .

الآيــة رقــم (٩٢)

قال تعالى : ﴿ وهذا كتابٌ أنزلناه مباركٌ مصدّق الّذى بين يديه ولتنذر أمّ القرى ومن حولها . والّذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون ﴾ .

من المعروف أنّ سورة الأنعام من المكّي من القرآن الّذى نزل قبل الهجرة . ومن المعروف كذلك أنّ رسالة المصطفى ﷺ عالميّة للنّاس كافّة . وقد عرفنا أنّ هذه العالميّة جاءت الإشارة إليها فى مثل هذه السّور المكّيّة الأعراف والفرقان وسبأ ، وقد نزلت الأعراف والفرقان قبل الأنعام ونزلت سبأ بعدها[1] وإن كان فى ترتيب هذه السّور نظر كما يقول السّيوطيّ فى الإتقان[2] وكأنّ آية سورة الأنعام حينما

(١و٢) الإتقان ١/٩٧ .

يجيء فيها خطابًا للمصطفى ﷺ : ﴿ ولتنذر أمّ القرى ومن حولها ﴾ إنّما تشير إلى إحدى المراحل المبكرة من مراحل التّطبيق العمليّ لرسالة الإسلام العالميّة ، وتنبّه إلى أنّ المرور بأولى درجات المحلّيّة خطوةٌ ضروريّة فى سبيل العالميّة .

والآية الكريمة تشير إلى القرآن الكريم باسم الإشارة الدّالّ على القرب : ﴿ وهذا ﴾ وكأنّ هذا القرآن الكريم الّذى يرتلّه المصطفى ﷺ ويجاهدبه الكافرين جهادًا كبيرًا هو قريبٌ من كلّ الّذين دعاهم المصطفى ﷺ إلى الإسلام . ومن هؤلاء من استجاب وآمن فالقرآن الكريم قريبٌ من قلبه ، ومن هؤلاء من لم يستجب فأدبر . وإنّ القرآن الكريم ليس بعيدًا من آذان هذا الفريق وإن كان بعيدًا عن قلبه . ومعنى : ﴿ وهذا كتابٌ أنزلناه مباركٌ مصدّق الّذى بين يديه ﴾ وهذا القرآن ، ويلاحظ أنّ لفظ القرآن يرتبط بالقراءة أو بالتّلاوة ، وهذا القرآن كتاب ، ويلاحظ أنّ لفظ الكتاب يرتبط بالكتابة . ويكاد يكون لفظ الكتاب شركةً بين كلّ الكتب السّماويّة . ويكاد يكون لفظ القرآن اسمًا خاصًا بالقرآن الكريم . إنّ هذا القرآن الكريم كتابٌ أنزله الله تعالى بواسطة رسولٍ من الملائكة كريم ، هو جبريل عليه السّلام ، على رسولٍ من البشر كريم ، هو محمّد بن عبد الله ﷺ . وهذا الكتاب الكريم مبارك . فبقدر استمساك الفرد أو الجماعة أو الأمّة به وتطبيق تعاليمه تكون بركته . وإنّ تاريخ هذه الأمّة الإسلامية خير دليل على ذلك . إنّ أولئك الّذين ترجموا تعاليم القرآن الكريم وتعاليم أشرف المرسلين إلى عمل فتحوا فى زهاء ثلث قرن ثلث العالم المأهول آنذاك . وإنّ هؤلاء الّذين فرّطوا فى جنب الله تعالى واتّخذوا القرآن الكريم مهجورًا أو كادوا يتخذونه مهجورًا هم فى ذيل قائمة الأمم وهم غثاءٌ كغثاء السّيل كما نطق بذلك الصّادق المصدوق محمّد بن عبد الله ﷺ . وإنّ من أبلغ الأقوال فى تصوير هوان المسلمين ، بسبب إلقائهم القرآن الكريم وراءهم ظهريًا ، قول جرير[1] .

---

(١) ديوان جرير ١٢٩ بيروت ١٣٧٩ هـ ١٩٦٠ م .

ويُقْضَى الأمـــر حين تغيـب تيـــمٌ ولا يُسْتأمـــرون وهـــم شهـــود

وهذا الكتاب العزيز المبارك مصدّقُ الّذى بين يديه وسبقه من كتب سماويّة ذكر القرآن الكريم أربعةً منها وهي صحف إبراهيم وتوراة موسى وزبور داود وإنجيل عيسى عليهم جميعًا صلوات الله تعالى وسلامه. ومن معانى تصديق القرآن الكريم للكتب السّابقة أنّها يُنَظَرُ إليها فى ضوء تعاليم القرآن الكريم، وبالتّالى فإنّ كلّ ما يصطدم منها بتعاليم القرآن ليس من الوحي ولا من كلام الله تعالى فى شيء.

ولمّا كان الإنذار هو الغالب فى تلك الفترة المكّيّة الّتى يكثر فيها المشركون الّذين ينذرون بالنّار، ويقلّ فيها المؤمنون الّذين يبشّرون بالجنّة جاء فى الآية الكريمة القول: ﴿ ولتنذر أمّ القرى ومن حولها ﴾ وقد جاء التّعبير عن مكّة بأمّ القرى، لأنّها من النّاحية الدّينيّة أمّ القرى فعلاً، فابنها البارّ محمّد بن عبد الله ﷺ هو خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين، ولأنّها من النّاحية المادّيّة أمّ القرى فعلاً فهى محور الكرة الأرضيّة وهي الّتى تتوسطها بالفعل مكانًا وزمانًا. ومن الطّبيعيّ أن يبدأ الإنذار بأمّ القرى ذاتها، وأن يتحوّل إلى من حولها وما حولها. وقد جاء فى سورة الشّورى(١) قوله تعالى: ﴿ وكذلك أوحينا إليك قرآنًا عربيًّا لتنذر أمّ القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه. فريقٌ فى الجنّة وفريقٌ فى السعير ﴾ وأخذت، بفضل الله تعالى، تتداح دائرة الإسلام. والمعروف أنّ المصطفى ﷺ هو الرّسول الوحيد الّذى ارتبطت دولته بدعوته، ولم يكد يلحق المصطفى ﷺ بالرّفيق الأعلى حتّى كانت راية لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله عاليةً خفّاقةً فوق جزيرة العرب الّتى تعتبر أكبر شبه جزيرةٍ فى الدّنيا والّتى تشكّل زهاء سدس العالم الإسلامي بعد زهاء ألفٍ وأربعمائة سنة، ولم يكد يمرّ قرنٌ واحدٌ من الزّمان على وفاة المصطفى ﷺ حتّى كانت راية لا إله إلاّ الله محمد رسول الله هي راية الدّولة الإسلاميّة الممتدّة دون انقطاع من حدود الصّين شرقًا إلى مشارف باريس غربًا. وما هي أهمّ مقوّمات

---

(١) الآية ٧.

جند الإسلام البواسل وتلاميذ محمّد ﷺ الأماجد ؟ الإيمان بالقرآن الكريم ، الإيقان باليوم الآخر ، المحافظة على الصّلوات . وانظر إلى طريقة القرآن الكريم المعجزة فى التّعبير عن هذه المعاني : ﴿ والّذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون ﴾ وكيف يتمّ الإيمان بالآخرة ؟ عن طريق الإيمان بمحمّد بن عبد الله ﷺ وتحقيق أركان الإسلام وأركان الإيمان ابتداءً بالإيمان بالله تعالى . وحينما تكون البداية صحيحةً أعنى الإيمان بالله تعالى تكون النّهاية صحيحةً أعنى الإيمان باليوم الآخر : ﴿ والّذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به ﴾ إنّ الإيمان بالله تعالى والإيمان بالآخرة يعنيان الإيمان بما بينهما ومن ذلك الإيمان بالرّسل وبالكتب . وفى مقدّمة الرّسل محمّد بن عبد الله ﷺ . وفى مقدّمة الكتب القرآن الكريم . إنّ الإسلام نظريًّا لا يكفى بل لا بدّ من تقديم الدّليل عليه ، ولمّا كانت الصّلاة عماد الدّين فقد اتّخذتها الآية الكريمة رمزًا لتلك الأدلّة أو لتلك الأعمال : ﴿ وهم على صلاتهم يحافظون ﴾ ومن البيّن أنّ الآية الكريمة تتجاوز مجرّد إقام الصّلاة إلى المحافظة عليها لأنّ الصّلاة بسبب أهمّيّتها وبسبب تكرارها من أهمّ الأدلّة على إسلام المحافظ عليها ، ولأنّ ترك الصّلاة من أهمّ الأدلّة على الكفر والعياذ بالله . ومن الأدلّة على ذلك أنّ سورة المؤمنون فى عرضها لصفات المؤمنين بدأت بالصّلاة وانتهت بالصّلاة ، وأشارت إلى الخشوع فى الصّلاة مرّة وإلى المحافظة عليها مرّة أخرى . قال تعالى[1] : ﴿ قد أفلح المؤمنون . الّذين هم فى صلاتهم خاشعون . والّذين هم عن اللّغو معرضون . والّذين هم للزّكاة فاعلون . والّذين هم لفروجهم حافظون . إلاّ على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنّهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والّذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والّذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾ وإنّ الدّليل ذاته نتبيّنه فى الآيات الكريمات من سورة المعارج الّتى تثنى على المصلّين الّذين هم على صلاتهم دائمون ويحافظون . قال تعالى[2] : ﴿ إنّ الإنسان خلق هلوعًا . إذا مسّه الشّرّ جزوعًا . وإذا مسّه الخير منوعًا . إلاّ المصلّين .

---

(١) سورة المؤمنون ١ — ٩ .

(٢) سورة المعارج ١٩ — ٣٤ .

الّذين هم على صلاتهم دائمون . والّذين فى أموالهم حقّ معلوم . للسّائل والمحروم . والّذين يصدّقون بيوم الدّين . والّذين هم من عذاب ربّهم مشفقون . إنّ عذاب ربّهم غيرُ مأمون . والّذين هم لفروجهم حافظون . إلاّ على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنّهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والّذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والّذين هم بشهاداتهم قائمون . والّذين هم على صلاتهم يحافظون ﴾ وكان الابتداء والانتهاء هنا بالصّلاة كذلك .

وإذا كان الإيمان بالقرآن الكريم قد اقترن به الكثير من النّعوت والعظيم من الثّواب فإنّ الكفر بالقرآن الكريم قد اقترن به الكثير من الذّنوب والأليم من العذاب. ومن مظاهر الكفر بالقرآن الكريم ما أشارت إليه الآية الكريمة التّالية فإلى .

الآيــة رقــم (٩٣)

قال تعالى : ﴿ ومَنْ أظلم ممّن افترى على الله كذبًا أو قال أوحي إليّ ولم يوحَ إليه شيء ومن قال سأُنزل مثلما أنزل الله . ولو ترى إذ الظّالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تُجْزَون عذاب الهُون بما كنتم تقولون على الله غير الحقّ وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾ .

تقرّر الآية الكريمة أنّه لا أحد أظلم ممّن افترى على الله تعالى كذبًا بنسبة الصّاحبة والولد والشّريك إليه جلّ وعلا ، أو قال أوحي إليّ وزعم أنّ الله سبحانه وتعالى أوحى إليه بالنّبوّة والكتاب فى الوقت الّذى لم يوحَ إليه شيء ولكنّه الكذب والادّعاء واستغفال الآخرين ، ومن قال سأنزل مثلما أنزل الله تعالى من قرآنٍ كريمٍ . جاء فى سورة الأنفال[1] قوله تعالى : ﴿ وإذا تُتْلَى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلاّ أساطير الأوّلين ﴾ .

وحينما نقارن بين هذه الأمور الثّلاثة وكلّها مُرّ نتبيّن أنّها تبدأ بأشدّها سوءًا ثمّ الّذى يليه ، ثمّ الّذى يليه . إنّ أشدّ الأمور الثلاثة سوءًا وظلمًا الزّعم بأن لله سبحانه

---

(١) الآية ٣١ .

وتعالى صاحبةً أو ولدًا أو شريكا . قال تعالى[١] : ﴿ إنّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ﴾ وقال تعالى[٢] : ﴿ إنّ الشّرك لظلمٌ عظيم ﴾ وقد قرّرت الآية الكريمة أنّه لا أحد أظلم ممّن تورّط فى هذا الافتراء المحض . ويلى هذا النّوع من الظّلم ظلم افتراء نوعٍ معيّن من الكذب على الله تعالى وهو المتعلّق بالزّعم أنّ الله سبحانه وتعالى أوحى إليه بالنّبوّة أو بالكتاب و لم يوح إليه شيء . ومعروف أنّ هذا القول : ﴿ أو قال أُوحِي إليّ و لم يُوحَ إليه شيء ﴾ متعلّقٌ بختم النّبوّة . وكأنّ القضيّة السّابقة تتعلّق بالجراءة على الله تعالى ، وكأنّ القضيّة هذه الثّانية تتعلّق بالجراءة على مقام النّبوّة .

فإذا تحوّلنا إلى الأمر الثّالث تبيّناً أنّه أقلّ الافتراءات الثّلاثة خطورةً لأنّه يتعلّق بادّعاء القدرة على إنزال مثل ما أنزل الله تعالى من قرآنٍ مجيد . ومعروفٌ أنّ الّذين ادّعوا هذه القدرة خلال العصور كانوا فريقين . الفريق الأوّل الّذى ادّعى ذلك على غرار كفّار مكّة ولكنّه لم يفعل ، وربّما يكون قد فعل فى صمت ولكنّه لم يظهر ما جادت به قريحته الخائبة . وبالتّالى يشترك المدّعى قولاً والمدّعى قولاً وفعلاً ولكنّه أخفى الفعل ، يشترك هذا وذاك فى مجرّد الادّعاء القوليّ لأنّ إخفاء الفعل فى حكم عدم وجوده أساسًا .

والفريق الآخر هو الّذى كان من الوقاحة والقباحة إلى الحدّ الّذى أظهر سوءته وكشف عورته وذلك على غرار مسيلمة الكذّاب الّذى جاء فى قرآنه المزعوم بما أضحك الثّكْلى .

ونحن نعتقد أنّ الزّاعمين بأنّهم قادرون على أن يأتوا بمثل ما أنزل الله تعالى فريقان لا ثالث لهما . الأوّل هو الّذى وقف عند مجرّد الادّعاء ولعلّه جرّب فى الخفاء فعجز فاستحيا فأخفى لغوا لقول الّذى جاء به . ويصحّ أن يلحق بهذا الفريق أولئك الأفراد خلال العصور الّذين قيل عنهم إنّهم كانت لهم محاولاتٌ جادّة من

---

(١) سورة النّساء ٤٨ و١١٦ .

(٢) سورة لقمان ١٣ .

هذا القبيل ولكنّهم لسخفها أخفوها ووأدوها . والفريق الآخر هو السّفيه الوقح الّذى لم يستحي من كشف سوءته وإظهار عورته بإعلان سخف القول الّذى جادت به قريحته الباردة وعقليّته النّكدة ، وذلك على غرار الكلام الغثّ الّذى جرؤ مسيلمة الكذّاب على إعلانه فكان أُضْحوكة كلّ زمانٍ ومكان . ومن البيّن أنّ كلاً من الفريقين كاذبٌ فى ادّعائه ، وسواءٌ أظهر غثاءه أو أخفاه فإنّ فى هذا وذاك تأكيدًا لإعجاز القرآن الكريم الّذى لا يستطيع الإنس والجنّ مجتمعين على الإتيان بمثل أقصر سورةٍ واحدةٍ من سوره . ومن البيّن كذلك أنّ هذا النّوع من افتراء الكذب أقلّ ضررًا وأخفّ مرارةً من التّطاول فى الافتراءين السّابقين على مقام الألوهيّة وعلى مقام النّبوّة . وتشترك الافتراءات الثّلاثة فى كون المرتكب لآيٍّ ليس ثَمّة من هو أظلم منه ، خاصّةً فى حال ارتكاب الظّلم العظيم ، أعنى الشّرك والعياذ بالله تعالى ، ذلك الذّنب الّذى لا يغفره الله تعالى بحال من الأحوال ، إن لم يتب صاحبه إلى الله تعالى توبةً نصوحًا ويؤمن ويعمل عملاً صالحًا . ولمّا كان مصير هؤلاء المفترين على الله تعالى الكذب النّار وبئس القرار إن لم يتوبوا إلى الله توبةً نصوحًا فإنّ السّياق يتحوّل إلى تبيين عذاب هؤلاء الكاذبين ، ابتداءً بالوقت الّذى تحضرهم فيه أسباب الموت . والخطاب فى القول : ﴿ ولو ترى ﴾ للمصطفى ﷺ ولكلّ فردٍ من أفراد الأمة الإسلامية وراء ذلك . وجواب لو محذوف تقديره : لرأيت أمرًا عظيمًا وحالاً فظيعًا وكربًا شنيعًا . والمراد بغمرات الموت سكراته وكرباته : ﴿ ولو ترى إذ الظّالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم ﴾ إنّ الظّالمين الّذين أشار إليهم صدر الآية الكريمة وإلى سواهم من الظّالمين تداهمهم كربات الموت وسكراته وغمراته من ناحية ، وما أفظع كلّ ذلك ، وتبسط إليهم ملائكة العذاب أيديها بالعذاب من ناحيةٍ أخرى ، وما أشنع ذلك ، وقد جاء فى سورة محمّد ﷺ(١) : ﴿ فكيف إذا توفّتهم الملائكة يضربون وجوههم

---

(١) الآية ٢٧ .

وأدبارهم ﴾ وبالإضافة إلى سكرات الموت وضرب الملائكة وجوه الظّالمين وأدبارهم ونزعهم أرواحهم ساعة الوفاة نزعًا شديدًا، بل إغراقهم فى النّزع والمبالغة فيه وفى الشّدّة والعنف وقد قال تعالى[1] : ﴿ والنّازعات غرقًا ﴾ بالإضافة إلى كلّ ذلك تقول لهم ملائكة العذاب على سبيل الاستهزاء والتّبكيت : ﴿ أخرجوا أنفسكم ﴾ والمعنى أخرجوا أنفسكم من هذه المتاعب المتواصلة والمصائب المتتابعة[2] ونستطيع أن نفهم من استعمال جملة : ﴿ أخرجوا ﴾ هنا أنّ القوم هم الّذين أدخلوا أنفسهم فى هذه المحن بمحض إرادتهم فقد تنكّبوا الطّريق المستقيم عمدًا وإصرارًا. وكأنّ من أدخل نفسه فى ورطةٍ بمحض إرادته يستطيع أن يخرج منها وهيهات. وتردف الملائكة الاستهزاء والتّبكيت بتقرير حقيقة العذاب الّذى سيكون فيه الظّالمون يوم القيامة مع تعيين السّبب قال تعالى : ﴿ اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحقّ وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾ إنّ الظّالمين فى العذاب منذأن تحضرهم أسباب الموت وتبسط إليهم الملائكة أيديها بالعذاب إلى ما شاء الله تعالى . وقد جاء فى سورة هود[3] قوله تعالى : ﴿ فأمّا الّذين شَقُوا ففى النّار لهم فيها زفيرٌ وشهيق . خالدين فيها ما دامت السّماواتُ والأرضُ إلاّ ما شاء ربّك . إنّ ربّك فعالٌ لما يريد ﴾ ويوصف العذاب بأنّه عذاب الهون بمعنى الهوان والذّلّ والعياذ بالله.

أما سبب العذاب الهون فذو شقّين : ﴿ بما كنتم تقولون على الله غير الحقّ وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾ وممّا قال الظّالمون ما أشار إليه صدر الآية الكريمة من نسبة الصّاحبة والولد والشّريك إلى الله تعالى ، ومن الزّعم بأنّ ما يجرى على لسان الظّالمين من هراء القول هو ممّا أوحاه الله تعالى إليهم لأنّهم موحىّ إليهم بالنّبوّة مع العلم بأنّ المصطفى ﷺ هو خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين . هذا هو الشّقّ الأوّل من شقّي سبب العذاب . أمّا الشّقّ الآخر فهو أنّهم كانوا عن آيات الله تعالى

---

(١) سورة النّازعات ١ .
(٢) انظر هنا مثلاً تفسير ابن عطيّة ٥/٢٨٨ .
(٣) الآية ١٠٦ و١٠٧ .

يستكبرون ، وبالقرآن الكريم يكذّبون ويجحدون ويكفرون ، وله ينكرون . وإذا كانت الآية الكريمة السّابقة قد ذكرت أهمّ نعوت المؤمنين بالقرآن الكريم من إيمان بالآخرة وإقامٍ للصّلاة دليلاً على الإيمان بسائر الأركان وعلى عمل الصّالحات فإنّ الاستكبار عن آيات الله تعالى والكفر بها معناه اتّصاف أولئك الظّالمين بسيّئ الصّفات وارتكاب سيّئ الأعمال وإتيان كبير الموبقات . إنّ عذاب الهون هو الّذى يستحقّه الظّالمون الكافرون فى مقابل النّعيم المقيم الّذى يستحقّه المؤمنون المتّقون . وتستمرّ الآية الكريمة التّالية فى تبيين بعض ملابسات العذاب الهون فى يوم القيامة اليوم المجموع له النّاس المشهود فإلى .

الآيــة رقــم (٩٤)

قال تعالى : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أوّل مرّةٍ وتركتم ما خوّلناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الّذين زعمتم أنّهم فيكم شركاء . لقد تقطّع بينكم وضلّ عنكم ما كنتم تزعمون ﴾

وأوّل ما يلفت الانتباه مجيء الآية الكريمة فى الزّمن الماضى ، وكأنّ تلك الأمور قد وقعت فعلاً وذلك دليلٌ على أنّ هذه الأمور واقعةٌ فعلاً يوم القيامة . ثمّ إنّ جملة: ﴿ جئتمونا ﴾ هي الّتى تستعمل هنا دليلاً على المجيء الفعلىّ والوصول والانتهاء . وقد عرفنا أنّ جملة جاء لا تستعمل فى القرآن الكريم إلاّ دليلاً على القرب . وهي هنا تدلّ على القرب المكانيّ ، بمعنى أنّ أولئك الظّالمين قد جاءوا فعلاً إلى مكان الحساب فالعقاب .

وإذا كانت جملة : ﴿ جئتمونا ﴾ تدلّ على المجيء الفعلّي فإنّ لفظة : ﴿ فرادى ﴾ تدلّ على تحمّل القوم المسؤليّة كاملة : ﴿ ولا تزر وازرةٌ وزر أخرى ﴾[1] والحقيقة

---

(١) سورة فاطر ١٨ .

أنّ الآية الكريمة توضّح معنى القول : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى ﴾ فيما يشبه الشّريط المعنويّ الّذى يتناول الحدث من جوانبه المختلفة ، بحيث إنّ كلّ جزئيّةٍ تخدم تلك الفرديّة الّتىّ جاء فيها الظّالمون وذلك بهدم أحد أركان العون أو أحد جوانب المساعدة . إنّ القول : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أوّل مرّة ﴾ فيه اللاّم الموطّئة للقَسَم ، وقد الّتى تفيد التّحقيق ، وتظهر كلّ فرد جاء إلى الحشر فى صورته الّتى خلقه الله تعالى عليها فى الحياة الدّنيا حينما رأى النّور لأوّل مرّة . لقد جاء النّاس حفاةً عراةً غُرْلاً . ولّما كان هؤلاء الظّالمون مخدوعين بالمال والجاه والولد ، دون شكر منهم لله تعالى على هذه النّعم والآلاء ، بل إنّهم بادلوا الإحسان بالكفران ، فظنّوا أنّ كلّ ما حصلوا عليه فى الحياة الدّنيا بسبب اجتهادهم وعبقريّاتهم ، ولّما كان فى يوم القيامة لا ينفع مالٌ ولا بنون ، إلاّ من أتى الله بقلبٍ سليم ، فإنّ الآية الكريمة تنبّه إلى هذه المعاني فى القول : ﴿ وتركتم ما خوّلناكم وراء ظهوركم ﴾ وأوّل ما يلفت النّظر ترك أولئك الظّالمين كلّ متاع الدّنيا وراء ظهورهم فى تلك الحياة الدّنيا بعد الموت . ثمّ إنّ هؤلاء هم الّذى تركوا ذلك المتاع . وبطبيعة الحال هم تركوا ذلك المتاع مكرهين . ثمّ إنّ القوم استقبلوا الآخرة مكرهين تمامًا كما استدبروا الأولى وتركوها وراء ظهورهم مكرهين . والجزئيّة الكريمة تنبّه القوم إلى أنّ كلّ ما كان لديهم فى الدّنيا من مالٍ وولدٍ وجاه إنّما هو من الله تعالى الّذى ملّكهم إياه ومكّنهم منه وسخّره لهم ليعلم جلّ وعلا علم ظهورٍ أيشكر القوم لله نعمه وآلاءه أم يظلّون كافرين جاحدين . وبطبيعة الحال استمرّ القوم فى طغيانهم يعمهون .

ولّما كان مصدر ظلم القوم وطغيانهم فى الحياة الأولى ما خوّلهم الله تعالى إيّاه ، وقد عرفنا أنّهم تركوه مرغمين وراء ظهورهم فى الحياة الأولى ، إضافةً إلى الآلهة المزعومة المعبودة من دون الله تعالى والّتى ظنّ القوم أنّها تقرّبهم إلى الله تعالى زلفى فإنّ الآية الكريمة تتحدّث بعد ذلك فى هذا المعنى : ﴿ وما نرى معكم شفعاءكم

الّذين زعمتم أنّهم فيكم شركاء ﴾ إنّ الكلام هنا على ألسنة الملائكة الّتى تبكّت أولئك الظّالمين وتقول لهم يوم القيامة : ما نرى معكم فى هذا الموقف العصيب شفعاءكم الّذين عبدتموهم فى الحياة الدّنيا وزعمتم أنّهم سوف يشفعون لكم عند الله تعالى وسوف يقرّبونكم إلى الله تعالى زلفى ، وزعمتم أنّهم فيكم شركاء لله تعالى ، وأنّ عليكم أن تشركوهم فى العبادة مع الله تعالى ، وذلك مقابل النّصيب الّذى لهم فيكم .

لقد عرفنا أنّ متاع الدّنيا الّذى كان يعتزّ به الظّالمون ويفخرون قد تركوه وراءهم فى الحياة الدّنيا ، وها نحن أولاء نرى معبوديهم الزّائفين الّذين زعموا أنّهم سيشفعون لهم يوم القيامة ليسوا معهم مطلقًا . ليسوا من بين أيديهم ولا من خلفهم ولا عن أيمانهم ولا عن شمائلهم . وإنّ عدم وجود المال دليلٌ على عدم قبول مبدأ الفداء أساسًا ، وإنّ عدم وجود الآلهة المزعومة دليلٌ على عدم قبول مبدأ الشّفاعة أساسًا من تلك الآلهة المزعومة الرّاضية عن عابديها وقد قال تعالى[1] : ﴿ يومئذٍ لا تنفع الشّفاعة إلاّ من أذن له الرّحمن ورضي له قولاً ﴾ .

ونستطيع أن نجعل معبودى هؤلاء الظّالمين ثلاث مجموعات :

المجموعة الأولى هي الّتى لا علم لها بهذا الخطأ الشّنيع الّذى تورّط فيه العابدون فضلاً عن رضاها عن هذه العبادة أو الدّعوة إليها . ومن خير الّذين يمثّلون هذه المجموعة عيسى عليه السّلام الّذى زعم الغالون أنه ابن الله - كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذبا - وقد جاء فى هذا المعنى قوله تعالى فى سورة المائدة[2] : ﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للنّاس اتّخذونى وأمّي إلهين من دون الله . قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحقّ . إن كنتُ قلتُه فقد علمتَه . تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنّك أنت علاّم الغيوب . ما قلت لهم إلاّ

---

(١) سورة طه ١٠٩ . (٢) الآية ١١٦ ، ١١٧ .

ما أمرتنى به أنِ أعبدوا الله ربّي وربّكم . وكنت عليهم شهيدًا ما دمتُ فيهم فلمّا توفّيتنى كنت أنت الرّقيب عليهم وأنت على كلّ شيء شهيد ﴾ .

المجموعة الثّانية هي الّتى لها علمٌ بهذه العبادة ورضيت عنها ودعت إليها . وهذه المجموعة هي الّتى يتحقّق فيها القول فى الآية الكريمة : ﴿ لقد تقطع بينكم ﴾ بمعنى أنّ العلاقات بين الفريقين قد تقطّعت والأواصر قد تصرّمت وقد قال تعالى[1] : ﴿ الأخلاّء يومئذٍ بعضهم لبعضٍ عدوّ إلاّ المتّقين ﴾ وقال تعالى[2] : ﴿ ومن النّاس من يتّخذ من دون الله أندادًا يحبونهم كحبّ الله . والّذين آمنوا أشدّ حبًا لله . ولو يرى الّذين ظلموا

إذ يرون العذاب أنّ القوّة لله جميعًا وأنّ الله شديد العذاب . إذ تبرّأ الّذين اتُبِعوا مِنَ الّذين اتّبَعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب . وقال الّذين اتّبعوا لو أنّ لنا كرّة فنتبرّأ منهم كما تبرّءوا منّا . كذلك يريهم الله أعمالهم حسراتٍ عليهم وما هم بخارجين من النّار ﴾ .

المجموعة الثّالثة هي مجموعة مالا يعقل من الأصنام والأوثان والنّبات والحيوان والكواكب وما إلى ذلك . ولا يكاد ينتهى العجب من أولئك الّذين أنعم الله تعالى عليهم بنعمة العقل ثمّ هم يعبدون الجماد والنّبات والحيوان ، وكذلك الإنسان والملائكة والجانّ . وما إلى ذلك .

لقد جاء فى حقّ الأصنام المصنوعة من الحجارة المعبودة ، وفى النّاس عابديها بأنّهم جميعًا وقود النّار وذلك فى قوله تعالى من سورة البقرة[3] : ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتّقوا النّار الّتى وَقودُها النّاسُ والحجارةُ أُعِدّتْ للكافرين ﴾ وجاء فى حقّ العابدين والمعبودين وكونهم جميعًا حصب جهنّم وحطبها ووقودها قوله تعالى فى سورة الأنبياء[4] : ﴿ إنّكم وما تعبدون من دون الله حَصَبُ جهنّم أنتم لها

---

(١) سورة الزّخرف ٦٧ .
(٢) سورة البقرة ١٦٥ - ١٦٧ .
(٣) الآية ٢٤ .
(٤) الآيات ٩٨ - ١٠٠ .

وارِدون . لو كان هؤلاء آلهةً ما وردوها وكلّ فيها خالدون . لهم فيها زفيرٌ وهم فيها لا يسمعون ﴾ .

وفى يوم القيامة الّذى عرفنا بعض صفاته فى حقّ الظّالمين يتحوّل أولياء الضّلال فى الدّنيا إلى أعداء وتنبتّ بينهما العرى . وبشأن الآلهة المزعومة الّتى اعتقد الظّالمون أنّها تشفع لهم وتنفعهم تغيب يوم القيامة وتضّل عنهم . وبذلك تتحّقق الفرديّة الّتى أشارت إليها الآية الكريمة والمسئوليّة الشّخصيّة بكلّ معانيها . قال تعالى : ﴿ ولقد جئتمونا فُرادَى كما خلقناكم أوّل مرّةٍ وتركتم ما خوّلناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءَكم الّذين زعمتم أنّهم فيكم شركاء . لقد تقطّع بينكم وضلّ عنكم ما كنتم تزعمون ﴾

[١٠]

« من آيات الله تعالى الدّالّة على قدرته وإنكارٌ على المشركين وتصريف الآيات للمؤمنين »

الآيـــات (٩٥ ـ ١٠٥)

۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ
ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ
وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ
ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟
بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ
﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ
قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ
خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا
قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا
وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ
لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ
وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا
يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ
وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾
ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ
فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ
ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾
قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ
فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ
ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾

تدور آيات هذا القسم حول تصريف الله تعالى الآيات المادّيّة وآي الكتاب العزيز المعنويّة من أجل أن يزداد الّذين آمنوا إيمانا ويعود الّذين كفروا إلى رشدهم وصوابهم . وتدور الآيات حول آية المكان وآية الزّمان وآية خلق الله تعالى النّفس الإنسانيّة . ولّما كان ربّ العزّة قد خلق كلّ ما فى السّماوات والأرض من أجل النّاس فقد كان ثمّة عودةٌ إلى آية المكان من زاوية خطوطها الدّقيقة بعد أن ابتدأ الحديث عن آية المكان من زاوية خطوطها العريضة . لقد كان ثّمة حديثٌ مستفيضٌ عن الأنواع المختلفة من النّبات بعد فلق الله تعالى الحبّ وخروج الزّرع ، وفلق النّوى وخروج الشّجر ، ومنه شجر النّخيل الّذى كان حديثٌ عنه وعن شجر الزّيتون والرّمّان فى أثناء الحديث عن آية المكان من زاوية الخطوط الدّقيقة . لقد لفت الانتباه اختلاف التّعبير فى هذا القسم بعامّة ، ذلك الاختلاف الّذى عمّقه التّعليق على الخطوط الدّقيقة لآية المكان بالقول : ﴿ انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ﴾ جاء بشأن فلق الحبّ والنوى اسم الفاعل : ﴿ إنّ الله فالق الحبّ والنّوى ﴾ وجاء بشأن إخراج الحيّ من الميّت الفعل المضارع : ﴿ يخرج الحيّ من الميّت ﴾ ثمّ كانت عودةٌ إلى اسم الفاعل ولكن من غير الفعل الثّلاثيّ وذلك بشأن إخراج الميّت من الحيّ : ﴿ ومخرج الميّت من الحىّ ﴾ وينكر التّذييل على المنصرفين عمّا تدلّ عليه هذه الآيات من توحيدٍ لله تعالى . وبشأن آية الزّمان يتمّ الحديث عن أهمّ معالمها أعنى النّهار الّذى يفلق الله تعالى اللّيل أو الظّلمات فيخرج صباحه ، واللّيل ، والشّمس والقمر . وفى الآية التّالية يتمّ الحديث عن النّجوم لأنّ النّاس يهتدون بها فى ظلمات البرّ والبحر ويعرفون بها الأوقات والجهات . وقد لفت الانتباه فى القول : ﴿ فالق الإصباح ﴾ البلاغة بالحذف وكأنّ التّعبير عن المعنى الكامل تمّ بنصف الألفاظ وكأنّ أصل الكلام : فالق اللّيل ومخرج الصّباح . وكان التّجانس واضحًا بين إيجابيّة

النّهار وبين صيغة اسم الفاعل من الثّلاثي : ﴿ فالق ﴾ المشتمل على حرف المدّ وكذلك لفظ ﴿ الإصباح ﴾ وكان التّجانس كذلك واضحًا بين سلبيّة اللّيل وبين التّحول إلى صيغة الفعل الماضى : ﴿ جعل ﴾ وتوالى الحركات . وإنّ العزّة والعلم قد اقترنا بآيات الزّمان . جاء التّذييل بشأن آية الزّمان الأولى فى القول : ﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ وجاء التّذييل بشأن آية الزّمان الأخرى فى القول : ﴿ قد فصّلنا الآيات لقوم يعلمون ﴾ وبشأن النّفس الإنسانيّة ينصّ السّياق على خلق الله تعالى لنا أساسًا من أبينا آدم عليه السّلام ثمّ جعل أرحام النّساء مستقرًّا للنطفة وللولد ، وظهور الرّجال مستودعًا للنّطفة وللذّرّيّة . ولمّا كان الغوص فى أعماق النّفس الإنسانيّة يحتاج مرتبة من الفطنة تفوق العلم المجرّد كان ثمّة نصّ على الفقه وذلك فى القول : ﴿ قد فصّلنا الآيات لقومٍ يفقهون ﴾ والفقه هو التّوصّل إلى غائبٍ بعلم شاهد فهو أخصّ من العلم . ثمّ كانت العودة إلى الخطوط الدّقيقة إلى آية المكان بإكمال عمل الحبّة والنّواة بعد فلق الله تعالى لهما . إنّ من أهمّ ما يلاحظ هنا اختلاف أشكال الزّروع والجنّات من الأعناب والنّخيل وأشجار الزّيتون والرّمّان. وحتّى التّشابه بين الزّيتون والرّمّان شكلاً وورقًا والّذى نبّه عليه القول : ﴿ مشتبهًا ﴾ مالبث القول بعد ذلك : ﴿ وغير متشابه ﴾ أن نبّه على حقيقة الاختلاف بين النّوعين من الثّمر هيئةً ولونًا وطعمًا ورائحة . وإنّ الاختلاف بين الزّيتون والرّمّان حقيقة والاتّفاق شكلاً ، وإنّ الاختلاف بين أنواع النّبات ، وإنّ الاختلاف فى التّعبير فى أثناء آيات القسم رشّح كلّ ذلك للأمر بالنّظر فى القول : ﴿ انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ﴾ وإنّ من ألطف ما يمكن التّنويه به فى مجال التّناغم بين أنواع النّبات اختيار الآية الكريمة الصّغار من النّخل الذّى ينسجم شكلاً وحجمًا مع الأنواع الأخرى من الأشجار والزّروع . وينكر السّياق على أولئك الّذين جعلوا لله تعالى الجنّ شركاء فى العبادة بسبب تعطيلهم عقولهم . إنّهم لم يستفيدوا من عقولهم بشأن آيات الله تعالى المحسوسة . وإنّهم لم يستفيدوا من عقولهم حينما

زعموا أنّ الله تعالى قد اتّخذ ولدًا وبنات . وكيف يكون لله تعالى ولدٌ وهو الّذى لا صاحبة له ، وهو الله تعالى مربّى خلقه بنعمه وخالق كلّ شيء ، والّذى لا تدركه الأبصار والّذى يدرك الأبصار وهو اللّطيف الخبير . وانظر تناغم اللّطف فى الصّفة : ﴿ اللّطيف ﴾ مع القول : ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ وانظر تناغم الخبرة فى الصّفة : ﴿ الخبير ﴾ مع القول : ﴿ وهو يدرك الأبصار ﴾ إنّ الكافرين قد عطّلوا عقولهم بشأن كلّ آيات الله تعالى وفى مقدّمتها القرآن الكريم فَوِزْرُ عماهم عليهم ووزر سفههم . وإنّ المؤمنين قد استعملوا عقولهم استعمالاً صحيحًا فلهم ثواب أعمالهم الصّالحة المبنيّة على العلم الصّحيح .

الآيـــة رقـــم (٩٥)

قال تعالى : ﴿ إنّ الله فالق الحبّ والنّوى . يخرج الحيّ من الميّت ومخرج الميّت من الحيّ . ذلكم الله فأنىّ تؤفكون ﴾ .

الفلق : شقّ الشيء وإبانة بعضه عن بعض . يقال : فلقته فانفلق[1] إنّ الله سبحانه وتعالى هو وحده لا شريك له فالق الحبّ الّذى يخرج منه الزّرع كالحنطة والشّعير ، وفالق النّوى الّذى يخرج منه الشّجر كشجر النّخيل . ويلفت النّظر فى القول الّذى تبدأ الآية الكريمة به : ﴿ إنّ الله فالق الحبّ والنّوى ﴾ مجىء اسم الفاعل: ﴿ فالق ﴾ الّذى تبدأ به كذلك الآية الكريمة التّالية : ﴿ فالق الإصباح ﴾ كما يلاحظ مجىء لفظ الجلالة : ﴿ الله ﴾ الّذى يفيد العموم . وكأنّ لفظ الجلالة هنا رشح لمجىء اسم الفاعل فى القول : ﴿ إنّ الله فالق الحبّ والنّوى ﴾ المتعلّق بعمليّةٍ عامّةٍ ينال كلّ الخلق خيرها ، من إنسانٍ مؤمنٍ وكافر ومن حيوان ، والمنبّه إلى عمليّة فلق كل حبّةٍ ونواةٍ فى دنيا الله تعالى الواسعة العريضة . وإنّ الإنسان

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « فلق » ٣٨٥ .

الّذى أنعم الله تعالى عليه بنعمة العين المبصرة والأذن الواعية والعقل المتدبّر والقلب الشّهيد حينما يفكّر فى كلّ نبتةٍ وشجرةٍ تخرج من فلق الله تعالى من أجلها الحبّ والنّوى فى تخوم الأرض لا يملك إلاّ أن يهتف بتوحيد الله تعالى مالك الملك ذى الجلال والإكرام . إنّ التّفكر فى عمليّة الفلق للحبّة والنّواة تقود إلى سلسلةٍ موصولة الحلقات سابقةٍ ولاحقة من الأسئلة والأجوبة . ومن الأسئلة السّابقة كيف يخرج النّبات الحيّ من التّراب الميّت ، ومَنِ الّذى أوجد التّربة الصّالحة للزّرع ، وكيف تحدث عمليّة الفلق فى الظّلمات ، ظلمات باطن الأرض ، وكيف تعيش الحبّة والنّواة فى باطن الأرض ، وكيف تتنفس تحت الأرض ، ومن أوصل الماء إلى الحبّة والنّواة ، ومن الّذى جعلها تمتصّه وتأخذ منه حاجتها ، ومن الّذى أوجد الماء . إلى غير ذلك من أسئلةٍ علمًا بأن الآية الكريمة ذاتها أجابت عن واحدٍ من هذه الأسئلة فى القول : ﴿ يخرج الحيّ من الميّت ﴾ ومن ذلك إخراج النّبتة من الحبّة والشّجرة من النّواة . ومن الأسئلة اللاّحقة ما له علاقةٌ بمراحل نموّ النّبتة حتّى تصبح دوحةً وارفة الظّلال ، أو شجرةً زاهية الثّمار ، على نحوما جاء فى وصف أمّة محمّد ﷺ فى قوله تعالى عنهم فى سورة الفتح[1] : ﴿ ومثلهم فى الإنجيل كزرعٍ أخرج شَطْأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزّرّاع ليغيظ بهم الكفّار ﴾ إلى غير ذلك من أسئلة .

إنّ الإنسان الّذى أشرنا إلى صفاته إنّما يجد شفاءً لغليله[2] فى مثل قوله عزّ من قائل فى سورة فصّلت[3] : ﴿ قل أئنّكم لتكفرون بالّذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادًا . ذلك ربّ العالمين . وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها فى أربعة أيّامٍ سواءً للسّائلين . ثمّ استوى إلى السّماء وهي دخانٌ فقال لها وللأرض ائتيا طوعًا أو كرهًا قالتا أتينا طائعين . فقضاهنّ سبع سماواتٍ فى يومين وأوحى فى كلّ سماءٍ أمرها . وزيّنّا السّماء الدّنيا بمصابيح وحفظًا . ذلك

---

(١) الآية ٢٩ . (٢) الغليل : العطش الشّديد . (٣) الآيات ٩ ـ ١٢ .

تقدير العزيز العليم ﴾ وإذا كنّا نفهم من صيغة اسم الفاعل : ﴿ فالق ﴾ كثرة الفلق واستمراره وتجدّده ، فإنّ التّحوّل من صيغة اسم الفاعل هنا إلى صيغة الفعل المضارع بعد ذلك ممّا يشدّ الانتباه شدّاً ويدعو إلى التّفكّر والتّدبّر : ﴿ إنّ الله فالق الحبّ والنّوى . يخرج الحيّ من الميّت ﴾ وإذا كانت صيغة اسم الفاعل تفيد التّجدّد والاستمرار والكثرة فإنّ صيغة الزّمن المضارع تفيد التّجدّد والاستمرار . وقد عرفنا أنّ من معانى قوله : ﴿ يخرج الحيّ من الميّت ﴾ يخرج النّبتة من الحبّة الميْتة والنّواة الميتة ، ومن الأرض الميتة كذلك وقد قال تعالى[1] : ﴿ وآيةٌ لهم الأرض الميْتة أحييناها وأخرجنا منها حبًّا فمنه يأكلون ﴾ ويبدو فائدة الانتباه فى التّحوّل من اسم الفاعل إلى جملة الفعل المضارع هنا حينما نتبّين التّحوّل المتعمّد فى الآية الكريمة التّالية إلى جملة الفعل الماضى والعدول عن اسم الفاعل وذلك فى القول : ﴿ فالق الإصباح وجعل اللّيل سكنًا ﴾ بل إنّ الآية الكريمة الّتى نحن بصددها يتمّ فيها العودة إلى اسم الفاعل ﴿ مخرج ﴾ بمعنى العدول عن صيغة فعل الزّمن المضارع السّابقة مباشرةً : ﴿ يخرج ﴾ وذلك فى قوله عزّ من قائل : ﴿ إنّ الله فالق الحبّ والنّوى . يخرج الحيّ من الميّت ومخرج الميّت من الحيّ ﴾ إننّا فى حقيقة الأمر بصدد تنويع فى التّعبير يعزّزه مثل هذا التّنويع فى التّعبير : ﴿ والزّيتون والرّمّان مشتبهًا وغير متشابه ﴾ إنّ الزّيتون والرّمّان مشتبه فى الشّكل والورق ولكنّه غير متشابه فى الثّمر واللّون والطّعم والرّائحة . وكأنّ هذا التّنوع فى التّعبير والاختلاف فى المناظر مرشّح للأمر بالنّظر فى الثّمار وبخاصّةٍ إذا أينعت ، وكأنّ ثمّة تجانسًا بين التّعبيرات المتنوّعة والثّمرات المتنوّعة .

وتبدو قيمة هذا التّنوع فى المعانى والثّمرات وما ينبغى أن يفضي إليه من توحيدٍ لله تعالى وإفرادٍ له جلّ وعلا بالعبادة حينما نقارن بين القول فى آيةٍ كريمةٍ من هذا القسم : ﴿ والزّيتون والرّمّان مشتبهًا وغير متشابه . انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ﴾ وبين القول فى الآية الكريمة الحادية والأربعين بعد المائة من هذه السّورة الكريمة :

---

(١) سورة يس ٣٣ .

﴿ والزّيتون والرّمّان متشابهًا وغير متشابه . كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقّه يوم حصاده ﴾ لقد جاء مع التّنويع فى التّعبير : ﴿ مشتبهًا وغير متشابه ﴾ الأمر بالنّظر فى هذه المناظر الخلاّبة المتنوّعة . وجاء مع التّوحيد فى التّعبير : ﴿ متشابهًا وغير متشابه ﴾ الأمر بالأكل وبإيتاء الزّكاة(١) .

وإذا كنّا لاحظنا تنويعًا فى التّعبير فى هيئة التّحوّل من اسم الفاعل إلى الفعل المضارع فالعودة إلى اسم الفاعل وذلك فى القول : ﴿ إنّ الله فالق الحبّ والنّوى يخرج الحيّ من الميّت ومخرج الميّت من الحيّ ﴾ وإذا كنّا لاحظنا الشيء ذاته فى الآية الكريمة التّالية وذلك فى التّحوّل من اسم الفاعل إلى الفعل الماضى : ﴿ فالق الإصباح وجعل اللّيل سكنًا والشّمس والقمر حسبانا ﴾ فإنّ هذا التّنويع فى التّعبير اقترن به تنويع فى ظاهرة تلاؤم الأصوات . وكأنّ صيغة فاعل الّتى جاءت وفقها لفظة فالق، وكأنّ هذا القالب الصّوتيّ : ﴿ فاعل ﴾ من الفعل الثلاثى ، ذلك القالب الخفيف النّطق على اللسان ينبّه إلى كثرة عمليّة الفلق لكلّ حبّة ونواة فى هذه الدّنيا الواسعة العريضة ، وكأنّ القالب الصوتيّ الّذى جاء فيه كلٌّ من الفعل المضارع يخرج واسم الفاعل من غير الثّلاثيّ ينبّه ، بسبب التّحوّل من صيغةٍ صوتيّة إلى صيغةٍ صوتيّة أخرى أطول ، إلى الاختلاف فى المعنى تبعًا للاختلاف فى الصّيغة . وكأنّ جملة يخرج تشير إلى عمليّة الإخراج المتجدّدة المستمرّة ولكنّها الأقلّ كثرة . والّذى جعل الكثرة أقّل كلٌّ من المعنى وتحوّل الظّاهرة الصّوتيّة من السّرعة إلى البطء . إنّ معنى القول : ﴿ يخرج الحيّ من الميّت ﴾ يخرج الله تعالى دليلًا على قدرته ، الحيّ ، كالإنسان والدّجاجة ، من الميّت ، النّطفة والبيضة . ولا يخفى أنّ فلق الحبّ والنّوى أكثر من إخراج الحيّ من الميّت ، وأكثر من إخراج الميّت من الحيّ ، كالنّطفة من الإنسان والبيضة من الدّجاجة . وإنّ الّذى يعين على إظهار عملية الفلق أكبر حجمًا من عمليّة الإخراج للحيّ أو الميّت أنّ عمليّة الفلق تتعامل مع جنسٍ واحدٍ هو النّبات

---

(١) انظر هنا فى ظلال القرآن ١١٦١ سيّد قطب ومنهج الفنّ الإسلاميّ ، محمّد قطب ٢١٥ ـ ٢١٩ .

، فى حين تتعامل عمليتا الإخراج مع أكثر من جنس . وإنّ مِنْ ألطف ما يحضرنا بشأن عمليّة الفلق الكثيرة العدد الكبيرة الحجم البذور الكثيرة التّى يستطيع أن يحصل عليها بأزهد الأثمان من أراد أن يزرع حوضًا فى منزله أو أقلّ من حوض . وما أجمل تتبّع عمليّة الفلق هذه حينما تتمّ بشأن البذور الّتى يصحّ رؤيتها من وراء زجاج أو بشأن البذور الّتى تستجيب لعمليّة الفلق وهي فوق القطن مثلاً بدلاً من أن تكون تحت التّربة .

وكما تعاون المعنى والصّوت فى التّنبيه على عدد الإخراج الأقلّ بالقياس إلى الفلق وذلك فى القول : ﴿ يخرج الحيّ من الميّت ﴾ تعاون كذلك المعنى والصّوت فى التّنبيه على الشيء ذاته ، وذلك فى القول : ﴿ ومخرج الميّت من الحيّ ﴾ وتفسير ذلك أنّ اسم الفاعل من غير الثّلاثيّ فى القول : ﴿ مخرج ﴾ على وزن الفعل المضارع : ﴿ يخرج ﴾ لأنّ اسم الفاعل من غير الثّلاثيّ على وزن مضارعه بإبدال حرف المضارعة ميمًا مضمومة وكسر ما قبل آخره . ولّما كانت جملة الفعل المضارع ﴿ يخرج ﴾ قد أفادت معنىً مغايرًا لمعنى اسم الفاعل : ﴿ فالق ﴾ على نحوما تبيّن ، فإنّ هذا المعنى المغاير بسبب التّغاير صوتيًّا قد انسحب على اسم الفاعل من غير الثّلاثيّ ﴿ مخرج ﴾ . يضاف إلى ذلك أنّ القول : ﴿ ومخرج الميّت من الحيّ ﴾ قسيم القول : ﴿ يخرج الحيّ من الميّت ﴾ فكأنّنا بصدد كفّتى ميزان . فكما أفادت الكفّة الأولى : ﴿ يخرج ﴾ معنًى بعينه ، أفادت الكفّة الأخرى المعنى ذاته وإن كانت اسم فاعل ، وإن كان ثمّة عودةٌ إلى اسم الفاعل لأنّ اسم الفاعل هنالك غير اسم الفاعل هنا . إنّه هنا لك من الثّلاثيّ وهو هنا من غير الثّلاثيّ .

وإنّ القول : ﴿ إنّ الله فالق الحبّ والنّوى ﴾ الذّى يفيد فلق الله تعالى كلاًّ من الحبّ والنّوى ينبّه إلى أنّ عمليّة الفلق تتبعها سلسلةٌ من العمليّات تنتهى بطرح الدّوحة أو الزّرعة الثّمر . ولّما كانت بداية الآية الكريمة التّالية مشابهةً وذلك فى القول : ﴿ فالق الإصباح ﴾ فكأنّ هذا القول ينبّه هنا هو الآخر على أنّ عمليّة فلق

الإصباح بمعنى الصّبح[1] تتبعها سلسلةٌ من العمليّات تنتهى برحيل اللّيل من جديد وبزوغ الصّبح الوليد .

وإنّ القول : ﴿ يخرج الحيّ من الميّت ومخرج الميّت من الحيّ ﴾ يفيد تقديم خروج الحيّ وهو إيجابيّ ، على إخراج الميّت ، وهو سلبّي . وإنّ هذا التّقديم يسير على غراره فى القِسْم تقديم الصّبح وهو بداية النّهار على اللّيل ، وتقديم الشّمس وهي نجمٌ متوهّج على القمر وهو كوكبٌ غير متوهّج ولكنّه يستمدّ نوره من ضوء الشّمس وذلك حينما يعكس القمر ضوء الشّمس نورًا ، وتقديم البَرّ لعلاقة الإنسان الأكبر به على البحر ، وتقديم النّخل لأنّ ثمره يجمع بين الغذاء والتّفكّه والتّلذّذ على العنب وهو فاكهةٌ خالصة ، وتقديم الزّيتون وهو غذاءٌ على الرّمّان وهو فاكهة ، وتقديم السّماء وهي أكبر على الأرض ، وتقديم من أبصر على من عمى .

والآية الكريمة فى التّذييل : ﴿ ذلكم الله فأنّى تؤفكون ﴾ تخاطب كلّ النّاس قائلةً إنّ الذّى فعل كلّ ذلك هو الله تعالى وحده لا شريك له ، فأنّى تؤفكون وكيف تصرفون عن الإيمان واعتناق دين الإسلام إلى الجحود والكفران ، عن التّوحيد إلى الإشراك مع الله تعالى فى العبادة سواه . ومن البيّن علاقة الآية الكريمة بالمكان . والمعروف أنّ علاقة الإنسان بالمكان هي الأوثق ، وأنّ وعيه بالمكان هو الأسبق . وقد عمّقت الآية الكريمة الّتى ابتدأت بالمكان ، وبالغذاء ، قوام حياة الإنسان عليها ، عمّقت الآية الكريمة علاقة الإنسان الوثقى ووعيه الأسبق بالمكان . وقد اتّخذت الآية الكريمة من عجيبة فلق الله تعالى الحبّ والنّوى ، وإخراج النّبات الحيّ من الحبّة والنّواة والأرض الميتة منطلقًا للحديث عن إخراج الله تعالى الحّي من الميّت فإخراج الميّت من الحّي . ولمّا كان وعي الإنسان بالزّمان يلى وعيه بالمكان ، فإنّ الحديث يتحوّل إلى الزّمان ومتعلّقاته . ولمّا كانت آية المكان هذه قد ألمحت إلى إخراج الله تعالى الحّي من الميّت ، وفى مقدّمة أولئك الإنسان من النّطفة ، فإنّ

(١) لسان العرب « صبح » .

الحديث يتّحول بعد الزّمان إلى هذا الإنسان الّذى حارت البريّة فيه والّذى يحتاج إلى وعي أكبر كي يتدبّر ذاته ويبصر فى نفسه . فإلى الآية الكريمة الّتى تتحدّث ـ إثر المكان ـ عن الزّمان إلى .

الآيـــة رقـــم (٩٦)

قال تعالى : ﴿ فالق الإصباح . وجعل اللّيل سكنًا والشّمسَ والقمرَ حُسْبانًا . ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ .

من أقرب ما يلاحظ بشأن الآية الكريمة تجانسها صوتيًّا مع الآية الكريمة السابقة بحيث إنّ كلاً منهما تتألّف من أربع وحداتٍ صوتيّة وذلك على النّحو التّالى . إنّ الوحدة الصّوتيّة الأولى هنا : ﴿ فالق الإصباح ﴾ تقابل هذه الوحدة : ﴿ إنّ الله فالق الحبّ والنّوى ﴾ وإنّ الوحدة الصّوتيّة الثّانية : ﴿ وجعل اللّيل سكنا ﴾ تقابل هذه الوحدة : ﴿ يخرج الحيّ من الميّت ﴾ وإنّ الوحدة الصّوتيّة الثّالثة : ﴿ والشّمس والقمر حسبانًا ﴾ تقابل هذه الوحدة : ﴿ ومخرج الميّت من الحيّ ﴾ وإنّ الوحدة الصّوتيّة الرّابعة : ﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ تقابل هذه الوحدة : ﴿ ذلكم الله فأنّى تؤفكون ﴾ ومن البيّن تلازم كلٍّ من الوحدتين الثّانية والثّالثة فى الآيتين الكريمتين بحيث إنّ هاتين الوحدتين الصّوتيّتيْن يمكن أن تعتبرا وحدة صوتيّة . وبذلك يكون القول فى هذه الآية الكريمة : ﴿ وجعل اللّيل سكنًا والشّمس والقمر حسبانًا ﴾ أمام القول فى الآية الكريمة السّابقة : ﴿ يخرج الحيّ من الميّت ومخرج الميّت من الحيّ ﴾ وهكذا يتبيّن أنّ التّجانس بين الآيتين الكريمتين يشمل النّاحيتين الصّوتيّة والمعنويّة .

وبشأن الجزئيّة الكريمة الأولى يصادفنا اسم الفاعل : ﴿ فالق ﴾ وذلك فى القول: ﴿ فالق الإصباح ﴾ وهو اسم الفاعل ذاته الّذى جاء فى الجزئيّة الكريمة الأولى من

الآية السّابقة : ﴿ إنّ الله فالق الحبّ والنّوى ﴾ والمعنى هنالك أنّ الله سبحانه وتعالى شاقّ الحبّ والنّوى فمخرج النّبتة منهما . وهكذا يتبيّن أنّ ربّ العزّة يفلق الحبّ والنّوى فينفلق فيخرج منهما الزّرع والشّجر . يقال : فلقته فانفلق[1] فما معنى القول : ﴿ فالق الإصباح ﴾ بما أنّ الإصباح بمعنى الصّبح[2] فكأنّ المراد : ما معنى اسم الفاعل ﴿ فالق ﴾ هنا لأنّ الصبّح بمثابة النّبتة الخارجة من الحبّ والنّوى فى القول : ﴿ إنّ الله فالق الحبّ والنّوى ﴾ للإجابة على هذا السّؤال نحن بحاجةٍ إلى أن نقف على معانى اللّفظة فى اللّغة ابتداءً . جاء فى لسان العرب[3] : « الفَلْق (بسكون اللّام) : الشّقّ .... الأصمعيّ : الفُلوق الشّقوق ... واحدها فَلْقٍ ... وفى رِجْلِهِ فُلوق أي شقوق . والفِلْقة : الكِسْرة من الجَفْنة أو من الخُبْرِ . (أو) هو أحد شقّيها إذا انفلقت ... يقال : مررت بحَرّةٍ فيها فلوق أي شقوق . وفى الحديث : يا فالق الحَبّ والنّوى أي الّذى يشقّ حبّة الطّعام ونوى التّمر للإنبات . وفى حديث علّي عليه السّلام : والّذى فَلَقَ الحبّة وبرأ النّسَمة ، وكثيرًا ما كان يقسم بها ... وفِلْقه القوس : قطعتها ... وفَلَقَ الله الحبّ بالنّبات : شقّه ... وإذا تأمّلت الخلق تبيّن لك أنّ أكثره عن انفلاق ، فالفَلْق جميع المخلوقات ، وفَلَقَ الصّبح من ذلك . وانفلق المكان به انشقّ . وفَلَقَت النّخلة ، وهي فالق : انشقّت عن الطّلع والكافور ، والجمع فُلْق . وفَلَقَ الله الفجر : ابداه وأوضحه .... والفَلَق بالتّحريك : ما انفلق من عمود الصّبح . وقيل : هو الصّبح بعينه . وقيل : هو الفجر ، وكلٌّ راجع إلى معنى الشّقّ . قال الله تعالى : ﴿ قل أعوذ بربّ الفَلَق ﴾ . قال الفرّاء : الفَلَق الصّبح . يقال : هو أبين من فَلَق الصّبح وفَرَق الصّبح . وقال الزّجّاج : الفَلَق بيان الصّبح .... وفى الحديث أنّه كان يرى الرّؤيا فتأتى مثل فَلَق الصّبح ، هو بالتّحريك : ضوءه وإنارته . والفلْق بالتّسكين : الشّقّ .... وضربه على فَلْق رأسه أي مفرقه ووسطه ﴾.

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « فلق » ٣٨٥ . (٢و٣) لسان العرب : « صبح » .

فى ضوء النّصوص السّابقة الّتى تعمّدنا من الإكثار منها لمعرفة المحور الّذى تدور حوله الألفاظ المشتقّة وهو الفَلْق بمعنى الشّقّ نستطيع أن ننظر إلى القول : ﴿ فالق الإصباح ﴾ فى ضوء القول : ﴿ إنّ الله فالق الحبّ والنّوى ﴾ فبما أنّ القول : ﴿ فالق الحبّ والنّوى ﴾ بمعنى شاقّ الحبّ والنّوى فمخرج النّبت فهل القول : ﴿ فالق الإصباح ﴾ بمعنى شاقّ الإصباح أو الصّباح ؟ إنّ هذا هو المعنى المقصود ، ولكن حينما نسير وفق المعنى فى الآية الكريمة السّابقة نتبيّن هنالك أنّ الحبّ والنّوى انشقّ بإرادة الله تعالى فخرج منه النّبت ، أمّا فى حقّ الصّبح فإنّه هو الّذى انشقّ بإرادة الله تعالى وهو الّذى خرج . قال تعالى : ﴿ فالق الإصباح ﴾ الحقيقة أنّنا أمام مظهرٍ من مظاهر إعجاز القرآن الكريم فى مجال البلاغة بالحذف . وتفسير ذلك أنّ لفظة ﴿ فالق ﴾ تتعلّق بشيء محذوف هو الّذى وقع عليه الفلق بمعنى الشّقّ فخرج منه الصّباح ، وهذا الشيء المحذوف هو اللّيل أو الظّلمات . وكما حُذِف شيء يتعلّق بلفظة فالق وهو اللّيل المنفلق أو الظّلمات المنفلقة ، حذف شيء آخر يتعلّق هذه المرّة بلفظة الإصباح بمعنى الصّباح ، وهو عمليّة الخروج . وقد عرفنا هذين الشيئين وهما عمليّة الفلق وعمليّة الخروج من القول فى الآية الكريمة السّابقة : ﴿ إنّ الله فالق الحبّ والنّوى يخرج الحيّ من الميّت ومخرج الميّت من الحيّ ﴾ إنّ الحبّ والنّوى منفلق . وإنّ النّبت خارجٌ منهما .

فى ضوء حذف هذين الشّيئين من القول : ﴿ فالق الإصباح ﴾ فما هو أصل الكلام فى ضوء الآية الكريمة السّابقة ، والمعروف أنّ القرآن الكريم يفسّر بعضه بعضًا ؟ كأنّ أصل الكلام - والله تعالى أعلم - : إنّ الله سبحانه وتعالى فالق اللّيل وشاقّه ومخرج الصّباح منه ومظهره . وبسبب العلاقة المتينة بين عمليّة الفلْق بمعنى الشّقّ ، شقّ اللّيل أو الظّلام ، وبين الصّبح الّذى ينفلق عنه اللّيل أو الظّلام ، أُطْلِق الفَلَقَ ، بفتح اللّام على الصّبح ذاته قال تعالى[1] : ﴿ قل أعوذ بربّ الفلق ﴾ قال

---

(١) سورة الفَلَق ١ .

الفرّاء الفَلَق الصّبح[1] فالفَلَق هو الصّبح المنفلق عنه اللّيل أو الظّلام . وبسبب حذف شيئين متعلّقين باللّيل والصّبح أو لفظين هما اللّيل والإخراج أفاد القول : ﴿ فالق الإصباح ﴾ بأنّ الله تعالى هو شاقّ الصّبح أو عمود الصّبح ، وكأنّ عمليّة الشّقّ واقعةٌ على الصّبح مع أنّها فى الحقيقة واقعةٌ على اللّيل وأنّ الصّبح منشقٌّ عنه اللّيل ومنفلقٌ عنه الظّلام . وهكذا يتبيّن مظهرٌ من مظاهر إعجاز القرآن الكريم فى مجال البلاغة بالحذف بحيث إنّ كلّ قارىءٍ للقرآن الكريم ومستمعٍ له يفهم المعنى المراد من مثل القول : ﴿ فالق الإصْباح ﴾ فإذا تأمّل هذا القول وتدّبره تبيّن أنّ المعنى الكامل المفهوم للوهلة الأولى يعّبر عنه بنصف الألفاظ فقط !

وعلى غرار التّجانس الّذى تبيّن بين القول فى الآية الكريمة : ﴿ فالق الإصباح ﴾ وبين القول فى الآية الكريمة السّابقة : ﴿ إنّ الله فالق الحبّ والنّوى ﴾ يتبيّن التّجانس بين القول هنا فى الآية الكريمة : ﴿ وجعل اللّيل سكنًا والشّمس والقمر حُسبانًا ﴾ وبين القول فى الآية الكريمة السّابقة : ﴿ يخرج الحيّ من الميّت ومخرج الميّت من الحيّ ﴾ إنّ فى كلٍّ من الآيتين الكريمتين تحوّلاً من اسم فاعل إلى جملةٍ فعليّة. إنّ هنالك تحوّلاً إلى جملة الفعل المضارع ، وإنّ هنا تحوّلاً إلى جملة الفعل الماضى .

وإذا كان الصّباح أوّل النّهار وممثّلاً فى الآية الكريمة لسائر النّهار الإيجابيّ بالعمل فيه ، فإنّ اللّيل قد جعله الله تعالى سكنًا للخلائق وهدوءًا وطمأنينة . إنّ الآية الكريمة تشير إلى النّهار أوّلاً وذلك على غرار إشارة الآية الكريمة السّابقة إلى إخراج الحيّ أوّلاً ، وإنّ الآية الكريمة تشير إلى اللّيل آخرًا وذلك على غرار إشارة الآية الكريمة السّابقة إلى إخراج الميّت آخرًا . إنّ النّهار بمنزلة الحيّ . وإنّ اللّيل بمنزلة الميّت. وإذا كانت صيغة اسم الفاعل : ﴿ فالق ﴾ مقوّية لإيجابيّة النّهار بسبب معنى هذه الصّيغة من ناحية ، واشتمالها على الألف الممدودة الّتى تتيح للصّوت أن يمتدّ

---

(١) لسان العرب : « فَلَق » .

ويرتفع من ناحيةٍ أخرى ، فإنّ صيغة جملة : ﴿ جعل ﴾ فى الزّمن الماضى ، بسبب رتابتها النّاجمة عن الحركات الثّلاث المسبوقة بحركة على الواو تعوّض الحركة الّتى تتحوّل سكونًا فى كلٍّ من الوصل والوقف ، مقوّية لسكون اللّيل أو سلبيّته . ويلاحظ أنّ الآيات الكريمات تلفت الانتباه إلى عددٍ من آيات الله تعالى بقصد الشّكر لله تعالى ، ومن هنا كان الابتداء بأوضح الصّور للشيء الواحد المتعدّد الصّور كصورة الصّباح الّتى يبدأ بها النّهار ذو الصّور المختلفة حتّى يسلم إلى اللّيل ذى الصّورة الواحدة . والمعروف أنّ القرآن الكريم حينما يتحدّث عن مطلق اللّيل والنّهار يبدأ باللّيل لأنّ الظّلام هو الأصل ولأنّ الضّياء - أو النّور - طارئٌ عليه .

وكما قوّى التّجانسُ الصّوتيّ فى القول : ﴿ فالق الإصباح ﴾ بين شقّي الجزئيّة الكريمة بسبب اشتمال كلّ جزءٍ على حرف الألف الممدودة ، قوّى التّجانسُ الصّوتيّ فى القول : ﴿ وجعل اللّيل سكنًا ﴾ بين أجزاء هذا القول وبخاصّةٍ التّشابه بين أولى الألفاظ الثلاث : ﴿ وجعل ﴾ وبين أخراها ﴿ سكنا ﴾ إنّ جملة : ﴿ سكن ﴾ من الوجهة الصّوتيّة على غرار جملة : ﴿ جعل ﴾ .

ومن البيّن أنّ الجزئيّة الكريمة يجيء فيها جملة : ﴿ جعل ﴾ المتعلّقة بالجعل والتّصيير وليس بجملة ﴿ خلق ﴾ الّتى تفيد الإبداع والخلق من العدم . وإنّ عمليّة الجعل والتّصيير مقوّية لسلبيّة اللّيل فى مقابل إيجابيّة النّهار الّذى يبدأ بالصّباح . والحقيقة أنّه بالمقارنة صوتيًا بين الجزئيتين الكريمتين يتبيّن كأنّ لفظة فالق بسبب إيجابيّة النّهار ودور حرف المدّ تطوّح بنا وتقذفنا بعيدًا عن ظلمة اللّيل البهيم السّاكن، وذلك فى ضوء كون المعنى أصلاً : فالق اللّيل وشاقّه ومخرج الإصباح . وعلى غرار تقديم الآية الكريمة النّهار فى الذّكر على اللّيل قدّمت الشّمس المرتبطة بالنّهار على القمر المرتبط باللّيل بدرجةٍ أكبر .

وإذا كان ربّ العزّة جعل النّهار معاشًا ، وجعل اللّيل سكنا ، فإنّه جلّ وعلا جعل الشّمس والقمر حسبانًا نعلم بهما عدد السّنين والحساب من ناحية ، ويجريان

فى أفلاكهما بحسابٍ[١] من ناحيةٍ أخرى . قال تعالى[٢] : ﴿ هو الّذى جعل الشّمس ضياءً والقمر نورًا وقدّره منازل لتعلموا عدد السّنين والحساب . ما خلق الله ذلك إلاّ بالحقّ . يفصّل الآيات لقومٍ يعلمون ﴾ وقال تعالى[٣] : ﴿ والشّمسُ تجرى لمستقرٍّ لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمرَ قدّرناه منازل حتّى عاد كالعرجون القديم . لا الشّمسُ ينبغى لها أن تدرك القمر ولا اللّيلُ سابق النّهار وكلٌّ فى فلكٍ يسبحون ﴾ يقول الطّبريّ[٤] : « والحُسبان فى كلام العرب جمع حِساب كما الشُّهبان جمع شهاب . وقد قيل إنّ الحُسبان فى هذا الموضع مصدر من قول القائل حَسَبْت الحسابَ أَحْسُبُه حسابًا وحُسبانا » وجاء فى اللّسان[٥] : « الحُسبان ، بالضّمّ : الحساب . وفى التّنزيل : ﴿ الشمس والقمر بحُسْبان ﴾ معناه بحسابٍ ومنازلَ لا يَعْدُوانِها . وقال الزّجّاج : بِحُسْبان يدلّ على عدد الشّهور والسّنين وجميع الأوقات » .

ومن البيّن أنّ فى ذكر الصّباح ، بمعنى النّهار ، واللّيل والشّمس والقمر ذكرًا لأهمّ مقوّمات الزّمان ، هذا إلى التّنبيه إلى أهم متعلّقات النّهار واللّيل والشّمس والقمر . إنّ النّهار للعمل والكدح ، واللّيل لاتّخاذه سكنًا وراحة . وفى ذكر السّكن بشأن اللّيل ذكرٌ ضمنيّ للعمل بشأن النّهار . أمّا الشّمس والقمر فمن فوائدهما المباشرة علم السّنين والحساب . وإنّما تحقّق هذا العلم بسبب حركة كلٍّ من الشّمس والقمر المقدّرة المضبوطة بعلم الله تعالى وقدرته .

ومن البيّن أنّ الظّلام هو الأصل ، وأنّ النّور طارئٌ عليه . وإنّما اقترن اللّيل والنّهار بالشّمس فى المقام الأوّل يليها القمر وسائر الكواكب . وبهذا يتّضح أنّ التّذييل : ﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ وإن كان متعلّقًا بصدر الآية كلّه ، أي بالصّبح إذا تنفّس ، وباللّيل إذا أقبل بسكونه ، وبالشّمس والقمر ، فإنّ تعلّق التّذييل

---

(١) تفسير الطّبريّ ١٨٨/٧ .
(٢) سورة يونس ٥ .
(٣) سورة يس ٣٨ — ٤٠ .
(٤) ١٨٩/٧ .
(٥) « حسب » .

بالشّمس والقمر هو الأكبر لأنّ اللّيل والنّهار تبعٌ لهما منذ أن خلقهما الله تعالى . إنّ سير اللّيل والنّهار والشّمس والقمر فى أفلاكها كما أراد الله تعالى العزيز العليم لها إلى أن يرث عزّ وجلّ الأرض ومن عليها من دلائل عزّته وقدرته جلّ وعلا ، ومن دلائل إحاطته عزّ وجلّ بكلّ شيء علما . ومّما يؤيّد هذه المعانى قوله تعالى فى سورة يس[1] : ﴿ وآيةٌ لهم اللّيلُ نَسْلَخ منه النّهار فإذاهم مظلمون . والشّمس تجرى لمستقرّ لها ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ وقوله تعالى فى سورة فصّلت[2] : ﴿ ثمّ استوى إلى السّماء وهي دخانٌ فقال لها وللأرض ائتيا طوعًا أو كرهًا قالتا أتينا طائعين . فقضاهنّ سبع سماواتٍ فى يومين وأوحى فى كلّ سماءٍ أمرها . وزيّنّا السّماء الدّنيا بمصابيح وحفظًا . ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ .

ولّما كانت النّجوم من المقوّمات الرّئيسية لآية الزّمان كان الحديث فى الآية الكريمة التّالية عن النّجوم فإلى .

الآيـــة رقـــم (٩٧)

قال تعالى : ﴿ وهو الّذى جعل لكم النّجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البرّ والبحر . قد فصّلنا الآيات لقومٍ يعلمون ﴾ .

من البيّن أنّ الآية الكريمة امتدادٌ لآية الزّمان ، ومن الطّبيعيّ أن يكون الحديث عن النّجوم إثر ذكر كلٍّ من الشّمس والقمر . وإنّ ترتيب الشّمس والقمر والنّجوم هنا وفق هذا النّسق يذكّرنا بالتّرتيب المعاكس لهذه العناصر فى تدرّج إبراهيم عليه السّلام مع قومه عابدى الكواكب من كوكب الزُّهَرة إلى القمر إلى الشّمس . إنّ كلاًّ من التّرتيبين لحكمة . وإنّ الحكمة هنا من ذكر الشّمس فالقمر فالنّجوم الحديث عن أهمّ مقوّمات آية الزّمان فى حقّ الإنسان ابتداءً بالأكبر فى حقّ الإنسان

---

(١) الآية ٣٧ ، ٣٨ .

(٢) الآية ١١ ، ١٢ .

أيضًا أو فى نظره . إنّ للشّمس أكبر الأثر فى حياة الإنسان ، يليها القمر ، يليه النّجوم . وقد فرّق العلماء بين النّجم والكوكب . إنّ النّجم سراجٌ وهّاج مولّد بذاته للطّاقة كالشّمس مثلاً . وإنّ الكوكب جرمٌ سماويٌّ غير مولّد للطّاقة بل مستقبلٍ للضّوء وعاكس له نورًا كالقمر مثلاً . وحينما تذكر الآية الكريمة النّجوم فذلك معناه أنّها تريد الأجرام المولّدة للطّاقة ، المتوهّجة بذاتها ، النّابع منها الضّوء دائمًا ، المشرقة أبدًا . ولا شكّ أنّ فى التّنبيه إلى النّجوم بالذّات وليس إلى الكواكب تنبيهًا إلى نعمةٍ كبرى من نعم الله تعالى على عباده ، ووجوب قيام العباد بما يجب عليهم من شكرٍ لله تعالى على نعمة وآلائه . ومن الأدلّة على أنّ واجب العباد كبيرٌ تجاه هذه النّعمة الكبرى أنّ الآية الكريمة تبدأ بالقول : ﴿ وهو الّذى جعل لكم النّجوم ﴾ ولا يأتي فيها القول : وجعل لكم النّجوم ، عطفًا على القول : ﴿ وجعل اللّيل سَكَنًا والشّمس والقمر حسبانًا ﴾ .

حقًّا إنّ النّجوم امتدادٌ لكبرى آيات الزّمان ولكنّ الآية الكريمة بابتدائها : ﴿ وهو الّذى ﴾ أظهرت هذه الآية الزّمانيّة وكأنّها آيةٌ قائمةٌ بذاتها .

ولازلنا بصدد جملة : ﴿ جعل ﴾ الّتى جاءت فى الآية الكريمة السّابقة ، والّتى تفيد معنى صيّر ، والّتى ترتبط بعمليّة التّصيير والتّهيئة ممّا يفهم منه أنّ الآيات الكريمات هنا تتحدّث فى المقام الأوّل عن متعلّقات اليومين الاثنين الأخيرين اللّذين هيّأ الله سبحانه وتعالى فيهما الأرض كي تكون صالحةً للسُّكنى ، من بين الأيّام الأربعة المتعلّقة بالأرض . لقد تمّ فى اليومين الأوّلين منها خلق الأرض وإيجادها من العدم وإبداعها على غير مثالٍ سابق كما تمّ فى اليومين الأخيرين منها تهيئة الأرض لسُكْنى النّاس . أمّا اليومان الباقيان من الأيام السّتّة فلخلق السّماوات .

ومن الأدلّة على أنّ الحديث هنا متعلّق بتهيئة الأرض لسكنى النّاس مجيء الجارّ والمجرور فى القول : ﴿ وهو الّذى جعل لكم ﴾ إنّ الله سبحانه وتعالى جعل النّجوم متوهّجة من أجل النّاس .